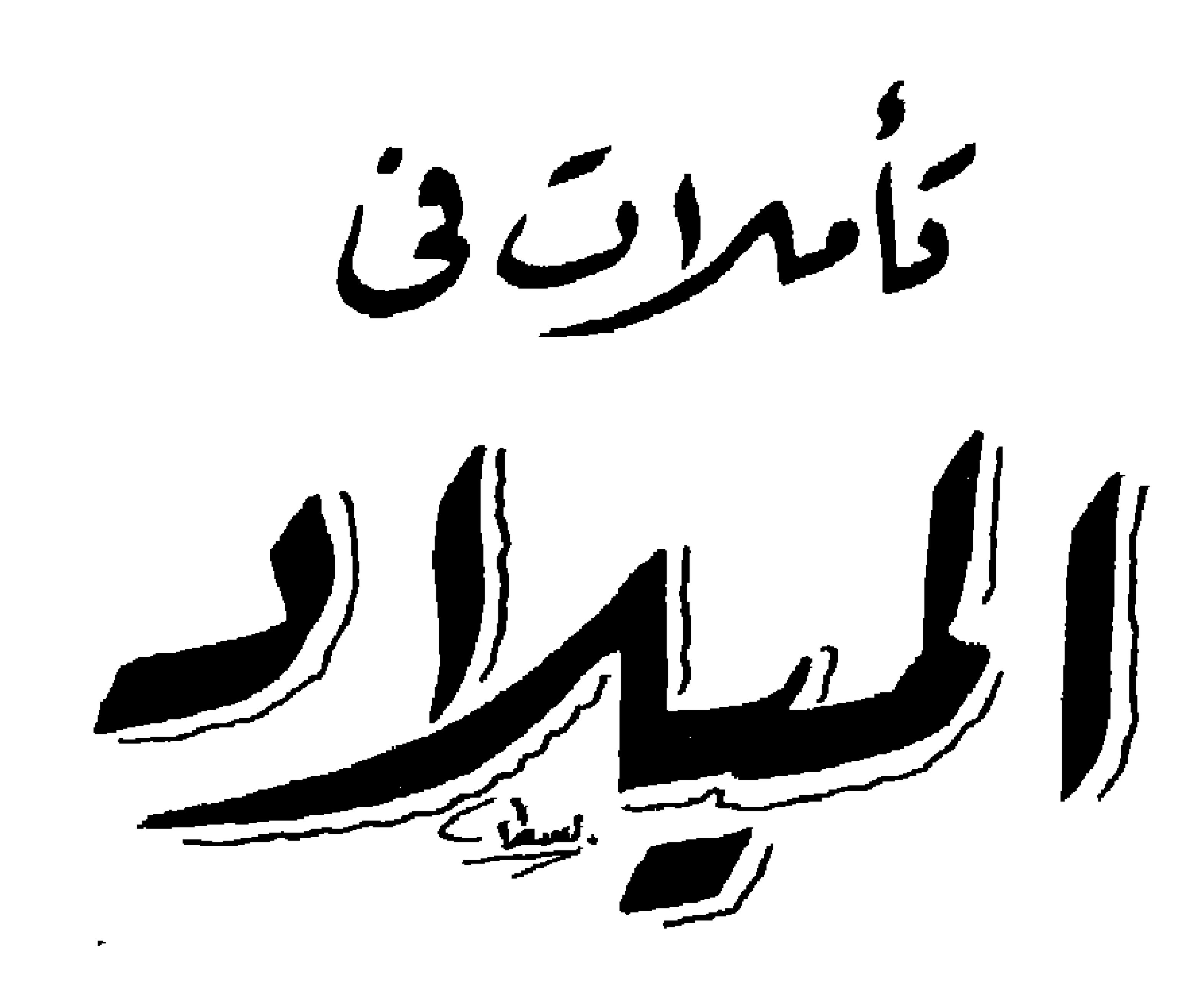
البابا شنوده الثالث

تأملات في الميلاد



البابا شنوده الثالث



Contemplation on The Nativity of Our Lord

by

H.H. POPE SHENOUDA III

5th Reprint

Nov. 1987

Cairo

الطبعة الخامسة

نوفمبر ١٩٨٧

القاهرة

الكتاب : تأملات فى الميلاد .
المؤلف : قداسة البابا شنوده الثالث .
الطبعة : الخامسة نوفمبر ١٩٨٧
المطبعة : الأنبا رويس (الأوفست) العباسية .



قداسة البابا شنوده الثالث

فهرست

صفحة

تصدير الكتاب ٦

أخلى ذاته ٧

ملء الزمان ٢٩

عمانوئيل ... الله معنا ٣٥

مصالحة السماء والأرض ٤١

لماذا حلّ الرب بيننا ؟ ٥٣

لسقوط وقيام كثيرين ٦٧

جاء يطلب ويخلص ما قد هلك ٧٣

بسم الآب والإبن والروح القدس ، إلاله الواحد آمين

تصـــديـر

نقدم لك فى هذا الكتاب سبع محاضرات القيت عن الميلاد : الخمس الأولى منها القيت فى القاعة المرقسية بدير الأنبا رويس بالقاهرة خلال سنتى ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ . والمحاضرتين الأخريين القيتا فى الكاتدرائية الكبرى فى سنة ١٩٧٦ ، سنة ١٩٨٠ .

وفى كتاب [وحى الميلاد] قدمنا لك سبع محاضرات أخرى

وبهذا نكمل لك ١٤ محاضرة روحية عن الميلاد

ولا تزال أمامنا محاضرات غير هذه لم يسبق نشرها

وكذلك (أسئلة فى الميلاد) وهى كثيرة

ليت الرب يعطينا فرصة لنشر كل هذا ، وإن امكن لابأس من تجميعه فى مجلد يشمل كل محاضراتنا عن الميلاد وإجابة كل الاسئلة المتعلقة به . ولكن المهم فى كل ذلك هو

فاعلية الإيمان فى حياتنا الخاصة ، كأفراد وكجماعة ...

وغالباً ما تدور هذه النقطة الهامة فى جميع محاضراتنا عن الميلاد ، كما نحرص أن نفعل ذلك فى كل المحاضرات بوجه عام .

لأن الدروس الروحية وحدها ، بدون فاعليتها فى الحياة ، تكون بدون جدوى ، ومجرد ثقل على الضمير .

فاحرص أيها الإبن المبارك فى كل قراءاتك الروحية أن تحول الكلمة إلى حياة ، لكى تنمو كل حين فى معرفة ربنا يسوع المسيح وفى محبته ، كما تكون لك شركة روحية مع كل إخوتك الذين يسلكون نفس الطريق ... وليكن الرب معك ...

يعطيك القوة فى طريقك إليه . ويعطيك الاستجابة فى طريقه إليك

شنوده الثالث



« فليكن فيكم هذا الفكر الذى فى المسيح يسوع أيضاً ، الذى إذ كان فى صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله .

لكنه أخلى ذاته آخذاً صورة عبد ، صائراً فى شبه الناس . وإذ وجد فى الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت ، موت الصليب » .

(فى ٢ : ٥-٨) .

مقدمة

إن السيد الرب ، إذ أخلى ذاته وأخذ شكل العبد لم يقتصر ذلك على حادثة الميلاد فحسب ، بل شمل ذلك حياته كلها التى لا تدخل تحت حصر.

ميلاد السيد المسيح المتواضع كان مجرد مظهر من مظاهر إخلاء الذات وسنحاول أن نتتبع إخلاء الرب لذاته فى كل ناحية ... ونحاول أن ندرك الأسباب التى من أجلها أخلى ذاته ... ثم نأخذ لأنفسنا عظة عملية ، محاولين أن نطبق عنصر الإخلاء فى حياتنا ...

وعلينا أن نفهم بالدقة : ما هو معنى إخلاء الذات ...

إنه لم يخلها طبعاً من جوهره ولا من طبيعته ولا من لاهوته الذى لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين . بل أخلى ذاته من الأمجاد المحيطة به ومن عظمة السماء . وسنشرح هذا وغيره بالتفصيل فى الصفحات المقبلة ...

جميل بنا أن نلاحظ أن هذا الإخلاء لم يكن إقلالاً من شأن الرب ، وإنما هو عظمة جديدة فى مفهومها . كان الناس يفهمون العظمة فى مظاهر خارجية . أما عظمة من يخلى ذاته و يأخذ شكل العبد ، فلم يكن أحد يتصورها . هذه قدمها الرب لنا ...

أخلى ذاته فى ميلاده

عجيب هو الرب فى إتضاعه ، عندما أخلى ذاته فى ميلاده .

● **نزل إلى العالم هادئا بدون ضجة ، ودخله فى خفاء لم يشعر به أحد ... لم يحدد من قبل موعد مجيئه .**

وهكذا ولد فى يوم مجهول ، لم تستعد له الأرض ولا السماء ، ولم يستقبله فيه أحد . يوم ميلاده كان نكرة بالنسبة إلى العالم ، مع أنه من أعظم الأيام إذ بدأ فيه عمل الخلاص الذى تم على الصليب .

ولو نزل الرب إلى العالم فى صفوف ملائكته ، على سحابة عظيمة ، أو فى مركبة نورانية يحيط به الشاروبيم والسارافيم ... وقد إرتجت له السموات وكل قوى الطبيعة ... أو لو أن السماء إحتفلت بميلاده ، ليس بنجم بسيط يظهر للمجوس ، بل إهتزت له كل نجوم السماء وكواكبها ... لو حدث ذلك ، لقلنا إنه أمر يليق بالرب ومجده ... !

لو أن شخصاً كان مسافراً إلى مكان ما ، لأرسل الرسائل قبلها ، فيستقبله الأحباء والأصدقاء والأقارب والمعارف والمريدون ، وربما يستاء إذا قصر أحد فى إنتظاره أو فى إستقباله ...

أما السيد المسيح فدخل إلى العالم فى صمت ، بعيداً عن كل مظاهر الترحيب ، فى غير ضجيج ، وبطريقة بسيطة هادئة ... دخل بنكران عجيب للذات ، أو فى إخلاء عجيب للذات وكل الذين إستقبلوه جماعة من الرعاة المساكين ، ثم المجوس ...

● هناك أشخاص يحبون الضجيج وبهرجة الترحيب فى دخولهم وفى خروجهم ، لأن فاعلية ميلاد السيد المسيح لم تغيرهم بعد ...

لم يخل السيد المسيح ذاته فى هدوء مجيئه إلى العالم فحسب ، بل فى كل ظروف ميلاده . فكيف كان ذلك ؟

● **ولد من أم فقيرة يتيمة** ، لم تكن تجد من يعولها . عهد بها الكهنة إلى يوسف ، خطبوها له لتعيش فى كنفه .

وولد فى قرية هى : « الصغرى بين رؤساء يهوذا » (مت ٢ : ٦) .

وسكن فى الناصرة التى يعجب الناس إن أمكن أن يخرج منها شىء صالح (يو ١ : ٤٦) . ودعى ناصرياً .

وعاش فى بيت نجار بسيط ، حتى كانوا يعيرونه قائلين : « أليس هذا هو إبن النجار» (مت ١٣ : ٥) .

وعاش ثلاثين سنة مجهولاً ، كفترة تبدو ضائعة فى التاريخ . حتى الرسل لم يعتنوا أن يكتبوا عنها شيئاً تقريباً ... عاش فيها دون أن يلتفت إليه أحد ، مخفياً لا يعرف عنه أحد شيئاً ، كأى شخص عادى ... بينما تلك السنوات الثلاثون هى فترة

الشباب والقوة التى يهتم فيها كل إنسان بذاته ، و يود فيها كل شاب أن يظهر وأن يعمل عملاً ...

● أخلى الرب ذاته فعاش فى التطورات الطبيعية كسائر البشر .

قضى فترة كرضيع وكطفل . ولم يستح من ضعف الطفولة ... بما فيها من إحتياج إلى معونة آخرين ، وهو معين الكل !

إحتاج إلى رعاية أم ، وهو راعى الرعاة ! إحتاج إلى إمرأة من صنع يديه ، تحمله على يديها ، وتهتم به ، وهو المهتم بكل أحد . وتغذيه ، وتعطيه ليأكل و يشرب !

ومن العجيب فى طفولته ، **أنه أخلى ذاته من إستخدام قوته.. فهرب من أمام هيرودس ، بينما روح هيرودس فى يده !** هرب من هيرودس وهو الذى خلق هيرودس ، وأبقاه حتى ذلك اليوم . عجيب هذا الأمر... عجيب أن نرى القوى القادر على كل شيء ، يهرب مثل سائر الناس الذين يهربون من الضيق ! يهرب من القتل وهو الذى يملك الحياة والموت ... وجاء إلى مصر ، وعاش فيها سنوات . ولم يرجع إلاَّ بعد أن هدأ الجو ، بينما كان يستطيع أن يفلت من الرجل بطريقة معجزية أو يقضى عليه ...

أخلى ذاته ، فاحتمل ضعف البشرية وهو المنزه عن كل ضعف . وسمح لنفسه أن يجوع ويعطش ويتعب وينام ، كسائر البشر...

عجيب أن يقال عن الرب أنه فى آخر الأربعين يوماً : « جاع أخيراً » (مت ٤ : ٢) . وعجيب أن هذا الينبوع الذى روى الكل يقول للسامرية : « أعطينى لأشرب » (يو ٤ : ٧) ، و يقول على الصليب : « أنا عطشان » (يو ١٩ : ٢٨) . وعجيب أن يقال عنه إنه تعب وجلس عند البئر (يو ٤ : ٦) وإنه نام فى السفينة (لو ٨ : ٢٣) .

● أخلى الرب ذاته كل هذا الإخلاء ، ليخزى الذين يفتخرون و يتكبرون .

وكأنه يقول لكل هؤلاء : إننى لم أولد فى قصر ملك ، ولا على سرير من حرير ، وإنما فى مزود للبهائم . ولكنى سأجعل هذا المزود أعظم من عروش الأباطرة والملوك ... سيأتيه الناس من مشارق الشمس إلى مغاربها ليتباركوا منه .

ليس المكان هو الذى يمجد الإنسان ، ولكن الإنسان هو الذى يمجد المكان . والعظمة الحقيقية إنما تنبع من الداخل .

فليحل الرب فى أى مكان ، ولو كان مكاناً للبهائم ، وليولد فى أية قرية ولو كانت

هى الصغرى فى يهوذا . ولكنه سيرفع من شأن كل هذا ... يولد فى هذه الحقارة ، ويحول الحقارة إلى مجد .

يولد من فتاة فقيرة ، ويجعلها أعظم نساء العالم ... ويولد فى بيت رجل نجار بسيط ، فيحوله إلى رجل قديس مشهور فى الكنيسة ...

أخلى ذاته من مظاهر العظمة

أخلى ذاته من صفة الملك :

كان يمكن لمعلمنا الصالح أن يأتى كملك . ولو أتى كذلك ، ما كان أحد ينكر عليه أنه ملك . فهو من سبط يهوذا صاحب المملكة ، ومن نسل داود الملك . ولكنه أخلى ذاته من المُلك ، وهو ملك الملوك (رؤ ١٧ : ١٤) ...

لم يأت فى هيئة ملك . لأن اليهود فى تفاخرهم بالعظمة البشرية ، كانوا ينتظرون أن يأتى المسيا كملك عظيم ، لأنهم كانوا يظنون أن عظمة الملوك هى التى تخلصهم . وكان قصد الرب أن يحطم هذه الفكرة أيضاً . **فلم يخلصهم بعظمة الملوك ، بل بتواضع النجار الناصرى ، الذى إستهانوا به قائلين : « أليس هذا هو النجار إبن مريم ؟! »** (مر ٦ : ٣) .

أتى كنجار بسيط ، ولم يأتِ كملك . ولما سعى إليه المُلك ، رفضه وهرب منه . ولما « رأى أنهم مهتمون أن يأتوا ليختطفوه ويجعلوه ملكاً ، إنصرف إلى الجبل وحده » (يو ٦ : ١٥) .

ورضى أن يُحاكم أمام عبيده ، أمام بيلاطس وهيرودس ، وأمام أعضاء مجلس السنهدريم ... وكان يقول : « مملكتى ليست من هذا العالم » (يو ١٨ : ٣٦) .

أخلى ذاته من صولجان المُلك ومن الكرامة المقدمة للملوك ، مفضلاً أن يحاط بمحبة القلوب الطائعة لقلبه ، وليست الخائفة من سطوة سلطانه ...

أخلى ذاته من كرامة الرئاسة :

لم يطلب أن يكون رئيساً لتابعيه ، أو سيداً ... وإنما صديقاً لهم . وهكذا قال لتلاميذه : « لا أعود أسميكم عبيداً ... لكنى سميتكم أحباء » (يو ١٥ : ١٥) .

وخاطبهم فى إحدى المرات قائلاً : « أقول لكم يا أصدقائى ... » (لو ١٢ : ٤) .

وأخلى ذاته لدرجة أنه إنحنى وغسل أرجلهم ...

لم يعامل الناس كعبيد من صنع يديه ... بل كانت تربطه بهم رابطة الحب لا رابطة الرئاسة . إن البشر هم الذين يستهويهم حب الرئاسة والسلطان ... أما معلمنا المتواضع **فكان يريد قلوب الناس لا خضوعهم ، وكان يريد محبتهم لا تذللهم .** ولم يقم نفسه رئيساً للناس بل صديقاً .

لذلك كان محبوباً لا مخافاً . يهابه الناس عن توقير ، لا عن رعب . **لم يرد أن تكون له الرهبة التى ترعب الناس ، بل الحب الذى يجذب الناس .** وهكذا أمكن للأطفال أن تلتف حوله ، وأمكن ليوحنا أن يتكىء على صدره .

إن كل من يحب العظمة ، لم يتمتع بفاعلية الإيمان بعد .

قال الأنبا أنطونيوس مرة لأولاده : [يا أولادى ، أنا لا أخاف الله] . فأجابوه : [هذا الكلامُ صعب يا أبانا] . فقال لهم : [ذلك لأنى أحبه . والمحبة تطرح الخوف إلى خارج] (١ يو ٤ : ١٨) .

إن أهل العالم يحبون السلطة والنفوذ والسيطرة . يريدون أن يخافهم الناس ، **ولو** عن قهر . أما المسيح إلهنا فيقول : « من يحبنى يحفظ وصاياى » . **يعنى أن** حفظ وصاياه يكون عن حب وليس عن خوف ...

حتى فى صنع المعجزات :

أخلى الرب ذاته فلم يستخدم قوته على صنع المعجزات إلاَّ فى الضرورة القصوى .

لم يستخدم قوته من أجل ذاته ، ولا من أجل منفعة خاصة لم يستخدم لاهوته ليمنع عن نفسه الجوع أو العطش أو التعب أو الألم . رفض أن يحول الحجارة إلى خبز لسد جوعه الشخصى ، بينما بارك الخمس خبزات من أجل إشفاقه على الناس .

لم يستخدم قوته ليبهر الناس بالمعجزات ، ولا من أجل الإيمان . وعندما كانوا يطلبون منه معجزة لأجل (الفرجة) لم يكن يقبل . بل كان يبكتهم قائلاً : « جيل فاسق وشرير يطلب آية ولا تعطى له ... » (مت ١٢ : ٣٩) . لم يبهر الناس بالمعجزات مثلما فعل سيمون الساحر ، ومثلما فعلت عرافة فيلبى ، ومثلما سيحدث فى الأزمنة الأخيرة من المسيح الدجال والوحش والتنين ...

رفض أن يلقى نفسه من على جناح الهيكل ، لتحمله الملائكة . ويرى الناس المنظر فيندهلون ويؤمنون معجبين بعظمته ! ... رفض ذلك ، لأنه أخلى ذاته من إعجاب الناس . إن معلمنا الصالح لم يحط نفسه بالمجد ، لأنه أراد أن يلتف الناس حول التواضع وليس حول المجد .

ومعجزة كحادثة التجلى التى كان يمكن أن تبهر الجماهير ، لم يشأ أن يراها كل الشعب ، ولا حتى كل تلاميذه الإثنى عشر ، بل رآها ثلاثة فقط ، وأوصاهم ألا يظهروها ... كان زاهداً فى كل هذه الأمور التى يبحث عنها من يريدون أن يظهروا ذواتهم ... بل أكثر من هذا أنه بعد كل معجزة تبهر البصر كان يخفى تلك المعجزة بعمل من أعمال الضعف البشرى أو بكلام عن آلامه ... أو يطلب ممن حدثت معه أن يخفيها ...

وحتى من أجل الإيمان لم يشأ أن يبهر الناس بالمعجزات . أراد أن يكون إيمانهم بدافع من الحب والإقتناع وليس بسبب المعجزات . وما الدليل على هذا ؟

دليلنا أنه كان يطلب الإيمان قبل المعجزة ، وليس كنتيجة لها . وكثيراً ما كان يسأل الذى يجرى معه المعجزة « أتؤمن ؟ » ، أو يقول له : « ليكن لك حسب إيمانك » . وإن كان يؤمن قبلاً تحدث معه المعجزة ... ولذلك قيل عنه إنه فى وطنه : « لم يصنع هناك قوات كثيرة لعدم إيمانهم » (مت ١٣ : ٥٨) . كان الإيمان يسبق المعجزة . وكانت المعجزة نتيجة للإيمان وليست سبباً .

وكثير من معجزات السيد الرب كانت أعمال رحمة وحب وكانت لها أهداف روحية ... تتبعوا عنصر الحب والحنان فى معجزات الرب يظهر لكم واضحاً وجلياً . وهكذا نرى فى معجزة إقامة العازر أنه بكى قبل أن يقيمه . إن الحب الذى كان يعتصر قلبه ، ظهر أولاً فى عينيه الدامعتين ، قبل أن تظهر قوته فى عبارة : « هلم خارجاً » . وكثير من معجزات الشفاء كانت تسبقها عبارة : « فتحنن يسوع » أو « أشفق » أو ما شابه ذلك ...

ولم يستخدم معجزاته فى الدفاع عن نفسه ، أو فى الإنتقام من مضطهديه وشاتميه . أهانوه بكل أنواع الإهانة ، وأشبعوه شتماً وتعييراً . وكان يستطيع أن يجعل الأرض تفتح فاها وتبتلعهم ، أو تنزل نار من السماء وتفنيهم . ولكنه لم يفعل . كان قد أخلى ذاته من إستخدام هذه القوة التى فيه .

وعاش بغير لقب وبغير وظيفة :

● **عاش السيد المسيح بغير لقب ، وبغير وظيفة رسمية فى المجتمع ، وبغير إختصاصات فى نظر الناس** ... ماذا كانت وظيفة المسيح فى نظر المجتمع اليهودى ، أو فى نظر الدولة ؟! لا شىء ... كان أمامهم مجرد رجل يجول من مكان إلى آخر ، يعمل و يعلم ، دون أن يستند إلى وضع رسمى ...

● **لم يكن من أصحاب الرتب الكهنوتية فى نظر الناس** ، لأنه لم يكن من سبط لاوى ولا من أبناء هارون . فقد كانت أمه و يوسف النجار من سبط يهوذا .

ووصل إخلاؤه لذاته فى هذه الناحية ، أنه عندما شفى الرجل الأبرص ، قال له : « إذهب أر نفسك للكاهن ، وقدم القربان الذى أمر به موسى » (مت ٨ : ٤) . يا لها من عبارة مؤثرة للغاية !! تصوروا رئيس الكهنة الأعظم ، منشىء الكهنوت ومؤسسه ، ومنبع كل سلطة كهنوتية ، يقول للأبرص : « **إذهب أر نفسك للكاهن** » !! ...

وماذا عنك أنت يارب ، أنت الكاهن إلى الأبد على طقس ملكى صادق ؟ لماذا ترسلنى إلى كاهن ، وأنت راعى الرعاة وكاهن الكهنة ؟! ما أعجبك فى إخلائك لذاتك ! تتصرف كمن لا سلطة له ، ، وأنت مصدر كل سلطة !!

● **وعاش السيد المسيح بدون أى مركز إجتماعى ، ولم تكن له أية صفة رسمية على الإطلاق . حتى فى وضعه كمعلم** ... لم يكن من طوائف الكتبة والفريسيين المؤتمنين على التعليم فى ذلك الحين ، ولا من جماعة الكهنة الذين من أفواههم تطلب الشريعة (أر ١٨ : ١٨) ، ولا من الشيوخ ولا من البارزين فى المجتمع ...

وعلى الرغم من كل ذلك ، ملأ الدنيا تعليماً ، وكانوا يلقبونه بالمعلم ، والمعلم الصالح ، ودعى معلماً حتى من أصحاب المكانة العلمية كالكتبة والفريسيين ...

وهكذا أرانا كيف يمكن أن يعيش الشخص بلا لقب ، ومع ذلك يعمل أكثر من أصحاب الألقاب ! ...

وفى حياته كمعلم ، عاش وقد أخلى ذاته من كل شىء .

لم يكن له مكان يعلم فيه..

أحياناً كان يعلم وهو جالس على الجبل ، وأحياناً يكلم الناس وهو واقف فى سفينة ، وهم جلوس على الشاطىء... وأحياناً كان يعلم وهو فى وسط الزروع والبساتين ، يتأمل مع تلاميذه زنابق الحقل وطيور السماء ... وأحياناً كان يعلم فى الخلاء ، فى موضع قفر، فى البرية . وأحياناً فى الطريق ... وعلى العموم لم يكن له مكان خاص للتعليم ، لا مركز ثابت ولا مكان ثابت ... بل لم يكن له أين يسند رأسه (لو ٩ : ٥٨) .

وإذ أخلى ذاته من الإرتباط بمكان معين ، عمل فى كل مكان ...

عجيب أن الله الذى ملأ السموات والأرض ، لم يكن له أين يسند رأسه ... عندما ولد يقول الكتاب : « لم يكن له موضع فى البيت » (لو ٢ : ٧) . وطول فترة تجسده على الأرض لم يكن له مسكن معين . يذهب أحياناً إلى بيت مريم ومرثا ، وأحياناً إلى بيت مريم أم يوحنا الملقب مرقس ، وأحياناً إلى بيت سمعان ، وأحياناً إلى بستان جثيمانى ... ما أعجب قول الكتاب : « ومضى كل واحد إلى بيته ، أما يسوع فمضى إلى جبل الزيتون » (يو ٨ : ١) ...

والذين كانوا يتبعونه ، كانوا يسيرون وراء المجهول ... لا يعرفون لهم موضعاً ولا مركزاً ، ولا مالية معينة ، ولا عملاً محدداً . عندما قال السيد لمتى اللاوى : « إتبعنى » ، تبعه متى ... ولو سألته : « إلى أين ؟ » لما عرف كيف يجيب ... ولو سألته ماذا ستعمل ؟ لوقف أمام علامة إستفهام لا جواب لها . لقد أراد الرب لتلاميذه أن يخلوا ذواتهم أيضاً ... هم مجرد تلاميذ ، لا يعرفون لهم عملاً سوى أن يتبعوا المسيح ، الذى لا يعرفون له وظيفة ولا عملاً رسمياً ولا مكاناً ثابتاً ...

يحيط به جماعة من المساكين:

وكما أخلى المسيح ذاته ، أحبه الذين أخلوا ذواتهم ، أو الذين لا ذوات لهم . فأحاطت به مجموعة من الفقراء والمساكين والمزدرى وغير الموجود ... جماعة من جهال العالم وضعفاء العالم وأدنياء العالم (١ كو ١ : ٢٧ ، ٢٨) . وهكذا إختار تلاميذه : جماعة من الصيادين الجهلة ، كما إختار واحداً من العشارين المرذولين .

والذين أحاطوا به كانوا من عامة الشعب : الأطفال الذين لا يعتد بهم أحد ، والخطاة **والعشارون** الذين يحتقرهم الناس ، والنساء أيضاً اللائى لم تكن لهن مكانة فى المجتمع اليهودى ... وهكذا كانت نسوة كثيرات يتبعنه (لو ٢٣ : ٢٧) ... وحول صليبه وقفت النسوة لا شيوخ الشعب ... وبكت عليه بنات أورشليم (لو ٢٢ : ٢٨) ولم يبك عليه أعضاء مجلس السنهدريم ! ...

عاش إنساناً بسيطاً بلا مركز وبلا لقب ، يحيط به أشخاص **مجهولون** بلا مركز وبلا لقب أيضاً ...

وحتى لقبه الطبيعى « إبن الله » ، لم يستخدمه كثيراً . وكان يستبدله فى غالب الأحيان بلقب « إبن الإنسان » ! ...

عاش وسط الشعب ، لا وسط الرؤساء . وكان قريباً من الصغار ، بعيداً عن الكبار والمعتبرين ، يحبه الشعب ويضطهده الرؤساء ... وحسنا تنبأ عنه داود قائلاً : « الأعزاء قاموا علىَّ » (مز ٥٤ : ٣) « الرؤساء إضطهدونى بلا سبب » (مز ١١٩ : ١٦١) .

حتى الذين إستضافوه كانوا من البسطاء أو من المحتقرين فدخل بيت متى ، ولم يدخل بيت بيلاطس ولا بيت هيرودس ودخل بيت زكا ، ولم يدخل بيت حنان ولا بيت قيافا ...

عاش فقيراً ..

أخلى ذاته من المال والجاه ، فعاش فقيراً لا يملك شيئاً وهو مغنى الكل . حتى أنهم لما طلبوا منه الجزية لم يجد ما يعطيه لهم ، فطلب من بطرس أن يلقى الشبكة ويصطاد ويدفع لهم (مت ١٥ : ٢٧) .

وعاش مرفوضاً .

إلى خاصته جاء ، وخاصته لم تقبله (يو ١ : ١١) كنور أشرق فى الظلمة ، والظلمة لم تدركه (يو ١ : ٥) ، بل أحب الناس الظلمة أكثر من النور ... (يو ٣ : ١٩) .

وأصبح الإتصال به تهمة ، والتلمذة له عاراً ...

حتى أن نيقوديموس عندما أراد مقابلته ، قابله فى الخفاء ، سراً وليلاً (يو ٣ : ٢)

وحتى أن اليهود فى إهانتهم للمولود أعمى إذ آمن بالمسيح بعد شفائه ، شتموه قائلين له أنت تلميذ ذاك (يو ٩ : ٢٨) وهكذا أصبحت التلمذة لذاك الناصرى من أنواع السب ووصمة عار. وجاء الوقت الذى أصبح فيه تلاميذه مغلقين على أنفسهم فى العلية لا يستطيعون الخروج منها ، خوفاً من مسبة إنتسابهم لذاك الناصرى ...

وهكذا وجدنا عملاقاًعظيماً كبطرس تبرأ من المسيح ومن الإنتساب إليه ، وأخذ يلعن ويحلف قائلاً إنه لا يعرف الرجل (مز ١٤ : ٧١) .

وعاش مضطهداً فى حياته .

إن السيد الرب لم يخل ذاته فقط من المجد اللائق أن يحيط بلاهوته ، **بل أخلى ذاته حتى من مجد البشرية أيضاً** ، فكان محتقراً ومخذولاً من الناس ، رجل أوجاع ومختبر الحزن ... محتقراً فلم يعتد به (إش ٥٣ : ٢ ، ٣) .

أمسكوا مرة حجارة ليرجموه (يو ١٠ : ٣١) . ومرة أخرى : « أخرجوه خارج المدينة وجاءوا به إلى حافة الجبل حتى يطرحوه إلى أسفل (لو ٤ : ٢٩) ... وطاردوه فى كل مكان ، محاولين أن يصطادوه بكلمة ... ولم تكن له كرامة فى وطنه .

وتقبل كل هذه الإهانات الكثيرة ، وهو الذى لم يفارق لاهوته ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين ...

قالوا له إنك سامرى وبك شيطان ! وقالوا عنه إنه أكول وشريب خمر، ومجدف ، وضال ، ومضل . قالوا إنه ناقض للشريعة وكاسر للسبت ، وإنه ببعلزبول يخرج الشياطين . فبماذا أجاب المسيح ؟ ما أجمل قول القداس الغريغورى : « من أجلى إحتملت ظلم الأشرار. بذلت ظهرك للسياط ، وخديك أهملت للطم » ...

كيف أن هذا الذى تجثو أمامه كل ركبة مما فى السماء وما على الأرض ، الذى ليست السموات طاهرة قدامه ، كيف أنه : « لم يرد وجهه عن خزى البصاق » ؟! الجواب الوحيد أنه أخلى ذاته .

وهكذا ضربوه ولطموه... ما أعجبه فى إخلائه لذاته ! يصل الأمر بخالق السماء والأرض أن يسمح لإنسان من تراب أن يصفعه على وجهه ، ويقبل ذلك ويسكت ! ... « ظلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه . كشاة تساق إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها ، فلم يفتح فاه » (إش ٥٣ : ٧) .

ووصلت الإستهانة بإله الكل الذى أخلى ذاته ، إلى أنهم فضلوا عليه رجلاً قاتلاً ولصاً هو باراباس ، طالبين أن يصلب المسيح . بل وصلت الاستهانة بإله الكل إلى أن أصبح ثمنه ثلاثين من الفضة ، ثمن عبد !!

إنه لم يأخذ فقط شكل العبد ، وإنما بيع أيضاً بثمن عبد ... إستغل الناس إخلاءه لذاته ... فلم يمتنع عن إخلاء ذاته ، من أجل الناس .

وكما عاش مضطهداً فى حياته ، عاش مضطهداً بعد مماته أيضاً . فحتى قبره كانت تحرسه الجنود المدججة بالسلاح ، خائفين أن (ذلك المضل !!) يقوم ، « فتكون الضلالة الأخيرة أشر من الأولى » (مت ٢٧ : ٦٣ ، ٦٤) . وهكذا ختموا القبر بالأختام ، وضبطوه بالحراس ...

وهكذا لاحقوه بالشتائم بعد موته . وادعوا أن تلاميذه أتوا ليلاً وسرقوه . ودفعوا فى سبيل ذلك ما دفعوه من رشوة ...

جرأة الشيطان عليه .

عبارة « أخلى ذاته » لم تنطبق عليه فى فترة ميلاده فحسب ، بل صاحبته طوال حياته على الأرض فى الجسد ...

من أجل أنه أخلى ذاته ، تجرأ الشيطان ليجربه .

ووصل الرب فى إخلائه لذاته ، إلى حد أنه ترك الحرية للشيطان ، يختار الزمان والمكان ونوع التجربة ... ما أشد على النفس قول الكتاب : « ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة ، وأوقفه على جناح الهيكل » وأيضاً « ثم أخذه إبليس إلى جبل عالٍ جداً » (مت ٤ : ٥ ، ٨) .

إبليس « يأخذه » « ويوقفه » حيثما يشاء !! يا للهول ! ... ما أشد هذا الإخلاء للذات ... من يحتمله ؟! ...

وإذا بهذا الإله الكامل فى معرفته المخبأة فيه كل كنوز العلم والمعرفة ، يقول عنه الكتاب أن الشيطان : « أراه » جميع ممالك الأرض ومجدها !! ... **« أراه » ؟! وهو الذى يرى الخفيات والمكنونات ، ويعلم حتى أعماق الفكر وبواطن القلوب ...**

وهذه الممالك ، التى كلها من صنعه ، وكلها له ، والتى بيده بقاؤها وإنحلالها ، يقول له الشيطان : « لك أعطى هذه جميعها » ... **وتصل الجرأة بالشيطان أن يقول**

له : « **إن خررت وسجدت لى** » !! هل إلى هذه الدرجة تصل الجرأة ؟!

ما أعجبك يارب ! من يقدر على مثل هذا الإخلاء ؟!

واخيراً :

يعوزنا الوقت إن تحدثنا عن كل نواحى إخلاء الرب لذاته ... الأمثلة عديدة ، لا تحصى ... وإخلاء الرب لذاته له جذور ممتدة فى العهد القديم ، أتركها حالياً لتأملاتك الخاصة ...

أخلى ذاته ورفع شأن أولاده

العجيب أن المسيح إلهنا بقدر ما كان يخلى ذاته ، كان من الناحية الأخرى يرفع شأن أولاده ...

أخذ شكل العبد ، وأعطانا أن نصير شركاء الطبيعة الإلهية ! (٢بط ١ : ٤) . حقاً كما تقول تسابيح الكنيسة « أخذ الذى لنا ، وأعطانا الذى له » . وهكذا صارت لنا شركة معه (١يو ١ : ٦) . وصرنا « شركاء الروح القدس » (عب ٦ : ٤) ، (٢كو ١٣ : ١٤) ، وشركاء فى الميراث (أف ٣ : ٦) ... وصرنا جسده ، وأعضاءه ، ثابتين فيه ، كالأغصان فى الكرمة ...

وصار الرب يقربنا إليه باستمرار ، و يرفعنا قدامه ...

ومع أنه إبن الله الوحيد ، الكائن فى حضن الآب منذ الأزل ، يسمى نفسه فى غالبية الأوقات : « إبن الإنسان » . ونحن بنى الإنسان يدعونا أولاد الله ، ويكررها مرات عديدة ...

و يقول عنا إننا نور العالم ، و يطلب إلينا أن يضيء نورنا قدام الناس (مت ٥ : ١٤ ، ١٦) . و يدعونا أصدقاء له ، وأحباء ، وخاصته التى يحبها حتى المنتهى . ولكن الأكثر من هذا كله أن يسمح الرب بأن ندعى أخوته ! و يقول الكتاب : « ومن ثم كان ينبغى أن يشبه أخوته فى كل شيء » (عب ٢ : ١٧) و يقول أيضاً : « ... ليكون هو بكراً بين أخوة كثيرين » (رو ٨ : ٢٩) .

من هم إخوته هؤلاء ؟! هم نحن التراب والرماد ...

لو أن أحد الآباء الكهنة فى أيامنا ، أرسل خطابا إلى واحد من أولاده ، يقول له فيه : « أيها الأخ العزيز » ، لصاح الناس : ما هذا التواضع العجيب وإخلاء الذات ؟! كيف يدعو إبنه أخاً له ؟! فماذا نقول إذن عن رب الأرباب عندما يدعونا إخوته ؟! ...

بل أكثر من هذا أن الرب كثيراً ما يختفى لنظهر نحن . فعندما ظهر الرب لشاول الطرسوسى ودعاه ، فاستجاب وقال : « ماذا تريد يارب أن أفعل » (أع ٩ : ٦) . حوله الرب إلى القديس حنانيا فى دمشق قائلاً له : « قم وأدخل المدينة فيقال لك ماذا ينبغىَ أن تفعل » . وظهر الرب فى رؤيا لحنانيا ، وكلمه من جهة شاول ، فشفاه وعمده ونقل إليه رسالة الرب .

إن عمل الكهنوت كله ، وكل أعمال الخدمة والرعاية ، هى أعمال للرب ، يعمل فيها الله فى إختفاء ، ويجعلنا نحن ظاهرين فى الصورة . هو يعمل فينا ، وهو يعمل بنا ، وهو يعمل معنا ، ولكنه غير ظاهر ، أما نحن فنبدو للناس كأننا نعمل . بينما « ليس الغارس شيئاً ولا الساقى ، بل الله الذى ينمى » (١ كو ٣ : ٧) . ولكن الله كثيراً ما يعطى السلطان لأولاده ، دون أن يستخدمه مباشرة ...

والمطلوب من الخدام الذين يعمل فيهم الله فى إختفاء ، أن يختفوا هم ليظهر الله . فمجد الله لا يجوز أن يعطى لآخر . أما الخدام فعليهم أن يصلوا قائلين : « ليس لنا يارب ليس لنا ، ولكن لإسمك القدوس أعطِ مجداً » (مز ١١٥ : ١) .

وعمل المعجزات يعمله الله أيضاً فى إختفاء عن طريق أولاده فيظهرون هم فى الصورة ، أما الرب فيقول لهم فى حب « من يكرمكم يكرمنى » ... الله يرسل السيدة العذراء ، أو الملاك ميخائيل أو مار جرجس أو غيرهم من القديسين ، فيعملون معجزات ، ويمجدهم الناس ، و يفرح الرب بأن أولاده يتمجدون ... بل كثيراً ما يقع إنسان فى ضيقة ، فيصرخ مستغيثاً « يا مار جرجس » ، و يسمع الرب ، فيرسل مار جرجس ، فينقذه ... أو ينذر إنسان نذراً للعذراء ... و يفرح الرب و يستجيب ...

بل أن الكنائس ـ وهى كنائس الله ـ سمح أن تُبنى على أسماء أولاده . فنقول كنيسة العذراء ، وكنيسة مار جرجس ، وكنيسة الأنبا أنطونيوس ، وكنيسة مار مرقس ... وكلها بيوت للرب . ولكن الرب يفرح بأولاده ...

بل حتى شريعة الرب ينسبها أيضاً لأولاده أحياناً ، فيقول : « ناموس موسى » أو « شريعة موسى » ، بينما هى شريعة الرب لا غيره . ويقول الرب للأبرص : « قدم القربان الذى أمر به موسى » (مت ٨ : ٤) . ويقول أيضاً : « موسى من أجل قساوة قلوبكم إذن لكم أن تطلقوا نساءكم » (مت ١٩ : ٨) ، بينما الذى أذن هو الله ، والذى أمر هو الله . ولكن الله يرفع من شأن موسى ، ويضع إسمه بدلاً من نفسه ! ...

من هم هؤلاء يارب الذين تريد أن تظهرهم ؟ إنهم تراب ورماد ، عدم وليس لهم وجود ... ولكنهم أحباؤك قديسوك ...

هناك عبارة عجيبة فى العهد القديم ، وقفت أمامها منذهلاً لحظات طويلة ... فى قصة الله مع موسى النبى . عندما ثقلت المسئولية على موسى ، قال له الرب : « إجمع إلىّ سبعين رجلاً ... فأنزل وأتكلم معك هناك . وآخذ من الروح الذى عليك وأضع عليهم ، فيحملون معك ثقل الشعب » (عد ١١ : ١٦ ، ١٧) .

تصوروا ، الله يأخذ من الروح الذى على موسى ويضع عليهم ! وما هو الروح الذى على موسى ؟ أليس من عندك يارب ؟! كيف تأخذ منه ؟ وكيف تأخذ منه أمام كل هؤلاء الناس ؟ أعطهم أنت من عندك مباشرة كما أعطيت لموسى ، أنت يا مصدر كل عطية صالحة ، أنت مصدر الحكمة والتدبير والفهم ... كلا ، إننى آخذ أمامهم من الروح الذى على موسى ، وأضع عليهم ، وأرفع شأن موسى فى أعينهم ... مبارك أنت يارب فى كل تدبيرك الصالح .

الله يحب أولاده ، ويريد أن يكرمهم ، فى السر والجهر .

بل أن الله كثيراً ما كان يسمى نفسه بأسماء أولاده ... فيقول : « أنا إله إبراهيم ، وإله إسحق ، وإله يعقوب » (خر ٣ : ٦) . ما هذا يارب ؟ إنهم هم الذين ينبغى أن ينتسبوا إليك ... الله يختفى ويظهر أولاده . وهم بالمثل يختفون لكى يظهر هو . إنها محبة متبادلة .

ومن المظاهر العجيبة فى إخلاء الرب لذاته ، ورفع شأن أولاده ، قصة عماد الرب من عبده يوحنا بن زكريا ...

يوحنا الذى لم يكن مستحقاً أن ينحنى ويحل سيور حذائه ، يوحنا الذى قال له فى

صراحة : « أنا محتاج أن أعتمد منك » ، يقف أمامه رب المجد قائلاً : « إسمح الآن » ... فسمح له ، وإعتمد الرب منه ... يا للعجب ... رئيس الكهنة الأعظم ، وراعى الرعاة ، الكاهن إلى الأبد على طقس ملكى صادق يأتى ليعتمد من يوحنا ، بينما تنفتح السماء ، و يسمع صوت الآب قائلاً : « هذا هو إبنى الحبيب الذى به سررت » (مت ٣ : ١٣ - ١٧) .

كانت معمودية يوحنا للتوبة ... ولم يكن السيد المسيح محتاجاً إلى التوبة مطلقاً لأنه قدوس بلا عيب . فلماذا إعتمد ؟! الذين جاءوا إلى يوحنا ليعتمدوا جاءوا معترفين بخطاياهم (مت ٣ : ٦) . ولم تكن للرب خطايا يعترف بها ، و يتوب عنها ، و يعتمد بسببها ، حاشا ... **فلماذا إعتمد إذن ؟!**

إنه من أجلنا أخلى ذاته وأخذ شكل العبد ... و بنفس الوضع ، من أجلنا إعتمد . من أجلنا أخذ شكل الخطاة ، إذ وضع عليه إثم جميعنا ، ووقف يطلب عنا معمودية التوبة ، كنائب عن البشرية الخاطئة ...



لماذا أخلى الرب ذاته ؟

كثيرة هى الأسباب التى لأجلها أخلى ذاته ، نذكر منها :

١- لكى نستطيع أن نقترب به ونوجد معه :

لو أنه ظهر فى جلال لاهوته ، ما كان إنسان يستطيع أن يقترب إليه ... ما كان تلميذه يوحنا يجرؤ أن يتكىء على صدره ، وما كان الأطفال يستطيعون أن يجروا نحوه ويحيطوا به ويهرعوا إلى حضنه ، وما كانت المرأة الخاطئة تستطيع أن تتقدم نحوه وتمسح قدميه بشعرها . بل ما كانت العذراء تستطيع أن تحمله على كتفها أو ترضعه من ثديها .

لو كان قد نزل فى قوة لاهوته ، لكان الناس يرتعبون منه ويخافون ... إن الرب عندما نزل على الجبل ليعطى الوصايا العشر ، « إرتجف كل الجبل جداً ، وصار كل الجبل يدخن ، وصعد دخانه كدخان الأتون » (خر ١٩ : ١٨) و« إرتعد الشعب ، ووقفوا من بعيد . وقالوا لموسى : تكلم أنت معنا فنسمع . ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت » (خر ٢٠ : ١٨ ، ١٩) .

وهكذا رأى الرب أن يخلى ذاته ، حتى يمكن للناس أن يختلطوا به دون أن ترعبهم هيبته ، أو يصدهم جلاله ...

إن موسى النبى ، عبد الرب ، عندما قضى معه أياماً على الجبل لأخذ اللوحين ، نزل فإذا وجهه يلمع لمعاناً لم يستطع الناس أن يحتملوه : « فخافوا أن يقتربوا إليه » . لذلك كان يضع على وجهه برقعاً حتى يحتمل الشعب أن ينظروا إليه (خر ٣٤ : ٢٩ - ٣٥) .

فإن كان هذا هو الجلال الذى أخذه موسى من عشرته للرب ، فماذا يكون جلال الرب نفسه ؟! وإن كان الناس لم يحتملوا النور الذى على وجه موسى وهو نازل من عند الرب ، فكيف تراهم كانوا يحتملون نور مجد الرب الذى قال عنه القديس يوحنا الرسول فى رؤياه أن : « وجهه كالشمس وهى تضىء فى قوتها » (رؤ ١ : ١٦) ؟!

إنه عندما ظهر لشاول الطرسوسى ، بهرت عيناه من قوة النور. وظل فترة لا يبصر والقشور تغطى عينيه . فمن كان يحتمل أن يرى الرب فى مجده ... من يرى الرب و يعيش ؟!

وعندما أظهر الرب شيئاً من مجد لاهوته على جبل التجلى ، كان التلاميذ مرتعبين ، ولم يكن بطرس يعلم ما يتكلم به (مر ٩ : ٦) . ولما سمعوا الصوت من السحابة : « سقطوا على وجوههم ، وخافوا جداً » (مت ١٧ : ٦) . كيف كان ممكناً إذن أن يحتمل الناس مجد الرب لو لم يخل ذاته ؟ وهو أيضاً من أجل إنكاره لذاته ، لم يأخذ معه كل تلاميذه إلى جبل التجلى ، ولم يعلن هذا المجد للجميع . وحتى الذين شاهدوا مجده : « أوصاهم أن لا يحدثوا أحداً بما أبصروا إلاَّ متى قام ... » (مر ٩ : ٩) .

إن إخفاءه لأمجاده مظهر آخر من إخلاء الذات ...

كان الرب يستطيع باستمرار أن يكون فى مجد التجلى بين الناس ، ولكنه لم يفعل . كان يريد أن يتمتعوا به ، ويختلطوا به ، لا أن يرهبوه .

ولماذا أيضاً أخلى ذاته ؟

٢- أراد أن يصحح فكرة الناس عن الالوهية :

لقد إقترب إلينا حتى لا تظل فكرة الناس عن الالوهية أن الله جبار ومخيف . فأراد أن يجذبنا بالحب لا بالخوف .

أراد أن يدخل قلوبنا عن طريق محبته ، لا عن طريق مخافته .

وهكذا نرى أنه عندما رفضت إحدى قرى السامرة أن تقبله ، رفض أن يسمع لتلميذيه اللذين طلبا أن تنزل نار من السماء وتفنى تلك القرية ، ووبخهما قائلاً : « لستما تعلمان من أى روح أنتما » (لو ٩ : ٥٥) . إنه لم يشأ أن يرهب أهل السامرة بقوته ، بل أن يكسبهم بمحبته . **وصبر معلمنا الصالح إلى أن جاء الوقت الذى دخل فيه أهل السامرة بالمحبة والترحاب لا بالنار النازلة من السماء ...**

الله لا يريد أن يكون مخيفاً بل محبوباً . الناس بطبيعتهم ينفرون ممن يخافونه . وقد يخضعون له فى ذل ، لكنهم ينفرون منه فى قلوبهم ...

كان التلاميذ يريدونه قوياً جباراً مهاباً ، بحسب فهمهم البشرى ، لذلك إنتهروا الذين قدموا الأطفال إليه . أما هو ، فقال لهم : « دعوا الأولاد يأتون إلىّ ولا تمنعوهم ... » . وأخذ الأولاد : « وإحتضنهم ، ووضع يديه عليهم وباركهم » (مر ١٠ : ١٣ - ١٦) . وكذلك عندما إنتهر التلاميذ الأعميين الصارخين نحوه ، وقف المسيح وناداهما ، وتحنن ، ولمس أعينهما فأبصرا وتبعاه (مت ٢٠ : ٣٠ - ٣٤) .

٣- وأخلى الرب ذاته ليعالج السقطة الأولى :

ماذا كانت السقطة الأولى سوى الكبرياء ، سواء سقطة الشيطان أو سقطة الإنسان ؟! فالشيطان قال فى قلبه : « أصعد إلى السموات ، أرفع كرسى فوق كواكب الله ... أصير مثل العلى » (إش ١٤ : ١٣ ، ١٤) . وعندما أسقط أبوينا الأولين أغراهما بقوله : « تنفتح أعينكما ، وتكونان مثل الله ... » (تك ٣ : ٥) .

أخلى الله ذاته آخذاً صورة العبد ، لكى يعطى درساً للعبد الذى أراد أن يرفع ذاته ويصير إلهاً . وهكذا صار إبن الله الوحيد إبناً للإنسان ، ليعالج كبرياء الإنسان ويجعله إبناً لله ، بالإتضاع الذى إتضع به إبن الله ، وليس بكبرياء السقطة الأولى ...

وهكذا فى إخلائه لذاته قيل إنه شابه : « إخوته » فى كل شيء ... (عب ٢ : ١٧) .

إن الرب عندما يسمى عبيده ومخلوقاته إخوة له ، إنما يبكت الذين يعاملون إخوتهم كعبيد لهم ، أولئك الذين يؤلهون أنفسهم كلما ينالون مركزاً أعلى من إخوتهم ... أما السيد المسيح إلهنا فلم يفعل هكذا ... لقد أخلى ذاته ، حتى إستطاع بطرس أن يأخذه إليه وينتهره قائلاً : « حاشاك يارب ... » (مت ١٦ : ٢٢) . وسمح لكثيرين أن يجادلوه ويناقشوه ، بعكس كثيرين من البشر الذين لا يقبلون جدالاً من أحد . وكان تلاميذه يحاورونه حسبما يريدون حتى سموهم « الحواريين » ...

وهكذا أخلى السيد المسيح ذاته ، وصار كواحد منا ... أراد الإنسان أن يرتفع ويصير مثل الله ، فنزل الله وصار مثل الإنسان ... لكى ينيله بغيته ، ولكن بطريقة سليمة ، بإتضاع الله لا بارتفاع الإنسان ...

الإنسان كان يريد أن يقف مع الله فى صف واحد ... فبدلاً من أن يرتفع الإنسان ليقف مع الله ، نزل الله ليقف مع الإنسان . لكيما بنزوله يخجل الإنسان وتنسحق نفسه ويتضع قلبه . وبإتضاعه يقترب إلى صورة الله المتضع . لقد أخذ الرب صورة العبد ، لكى يخفض من تشامخ السادة ...

فليتنا نتضع كلما تأملنا إخلاء الرب لذاته . ليتنا نتضع نحن الذين كلما أُعطينا سلطاناً فى أيدينا ، نريد أن تميد الأرض تحت أقدامنا ، وترتعش السموات من فوق ...

كيف نُخلى ذواتنا ؟

إن كان السيد المسيح قد أخلى ذاته ـ وفيه كل الملء ـ فنحن الفراغ ، كيف نُخلى ذواتنا ؟! السيد المسيح الذى فيه كل ملء اللاهوت ، أخلى ذاته وصار فى الهيئة كإنسان . وهو الإله أخذ شكل العبد ، فالعبد عندما يخلى ذاته أى شىء يكون ؟ إن سرنا بنفس النسبة فى إخلاء الذات ، ترى إلى أين نصل ... ؟!

عمق الإتضاع هو أن يسأل الإنسان ذاته : ما هى ذاتى حتى أخليها ؟! وعندما يشعر الإنسان أنه فراغ ، لا يوجد فيه شىء يخليه ، يكون حينئذ فى طريقه إلى كل الملء ...

النزول إلى فوق :

إن السيد المسيح إلهنا ـ عندما أخلى ذاته ـ نزل من السماء إلى الأرض ، وما أبعد المدى بين الإثنين ! ونحن الذين على الأرض إن أردنا أن ننزل منها فإلى إين ننزل ، وإلى أين نهبط ؟ هل تعلمون إلى أين ننزل ، وإلى أين نهبط ؟ **لا شك أننا فى هبوطنا ، إنما نهبط من الأرض إلى السماء . وفى نزولنا إنما ننزل من تحت إلى فوق ... !!**

وهكذا نرى أن السيد الرب قد غير المقاييس البشرية ، مقاييس العلو والهبوط ... ألغاها كلها ، وغيرها إلى العكس فقال : « **من يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرتفع** » (مت ٢٣ : ١٢) . وقال فى نفس المعنى : « من أراد أن يكون فيكم عظيماً ، فليكن خادماً . ومن أراد أن يكون فيكم أولاً ، فليكن عبداً » (مت ٢٠ : ٢٦) . وقال أيضاً : « إذا أراد أحد أن يكون أولاً ، فليكن آخر الكل وخادماً للكل » (مر ٩ : ٣٥) .

فالشخص الذى يرفع نفسه ، إنما يهبط بمستواها الروحى . كلما إنتفخ ، يتضاءل حتى يصبح لا شىء ... مثل هذا شبهه القديس أوغسطينوس بالدخان الذى كلما يرتفع ، تتسع رقعته . وكلما تتسع رقعته يتلاشى حتى يصبح لا شىء . وقد أخذ القديس أوغسطينوس هذا التشبيه عن داود النبى عندما قال : « لأن الأشرار يهلكون ... فنوا كالدخان فنوا » (مز ٣٧ : ٢٠) « كما يذرى الدخان تذريهم » (مز ٦٨ : ٢) .

إن الذين يظنون أنهم يرفعون ذواتهم ، إنما (يرفعونها) إلى أسفل ، لا إلى فوق . وهذا هو ما قصده الرب بقوله : « من يرفع نفسه يتضع » ...

أما المتواضعون فكلما يهبطون إلى أسفل يرتفعون إلى فوق أو ـ أن صح التعبير ـ يهبطون إلى فوق ... هم باستمرار ينزلون إلى الأعالى الكائنة فى الأعماق ، لأن السيد الرب أعطانا فكرة جديدة عن العلو والعمق ، عندما أخلى ذاته ... لقد علمنا أن العلو هو العمق ، وأن العلو يوجد تحت لا فوق ... وأعطانا مقاييس للعظمة لم تعرفها البشرية من قبل .

إن المتضعين يرتفعون فى هبوطهم ، والمتكبرين يهبطون فى صعودهم . وكل من يريد أن يصعد إلى فوق ، ويلتصق بالله ، عليه أن ينزل إلى الأرض ويقول مع داود : « لصقت بالتراب نفسى » (مز ١١٩ : ٢٥) . وإلهنا الناظر إلى المتواضعات « يقيم المسكين من التراب ، ويرفع البائس من المزبلة ، ليجلس مع رؤساء شعبه » (مز ١١٣ : ٧) .

والآن ، كيف تخلى ذاتك أيها الأخ :

إن لم تتمكن من إخلاء ذاتك بالتمام ، فعلى الأقل :

● **إخفض نفسك درجة عما تستحقه ، أو عما تظن أنك تستحقه ،** فى نظر الناس . فى إحدى المرات رسم كاهن جديد ، وقضى فترة الأربعين يوماً فى الدير . وفى تلك الفترة ـ وهو فى الدير ـ سألنى نصيحة له فى خدمته المقبلة ، فقلت له :

كن إبناً وسط إخوتك ، وأخاً وسط أولادك »

● **جرب كيف تتنازل عن حقوقك ،** عما يليق بك من كرامة . وفى كل وقت ضع أمامك الآية التى تقول : « المحبة لا تطلب ما لنفسها » (١ كو ١٣ : ٥) ... فلا تطلب أن تأخذ كل حقوقك ، ولا تطلب أن تدافع عن نفسك فى كل شىء ...

● **فى إخلائك لذاتك إلق عنك الأشياء التى تضخمك** فى نظر نفسك أو فى نظر الناس ، **عليك أن تتخلى عن مظاهر العظمة** ، وتعيش بسيطاً ...

واعلم أن السيد المسيح فى إخلائه لذاته ، أعطانا فكرة أن العظمة لا تنبع من مظاهر خارجية ، ولا من رفعة تحيط بالإنسان . **وإنما العظمة الحقيقية تنبع من الداخل ، من كنه الذات النقية . كلما يصير القلب نقياً ، يأخذ صورة الله ، ويصير حقاً على مثال الله حسبما خُلق فى البدء** (تك ١ : ٢٦ ، ٢٧) .

● **وفى كل نقاوتك وفضائلك ، إنسب الفضل كله لله لا إلى نفسك** . أشعر **دائماً أن الله هو العامل فيك** ، وليس أنت .وأنك بدونه لا تستطيع أن تعمل شيئاً .

وإذا إشتركت مع إنسان فى عمل ، قدمه على نفسك فى كل شىء . أعطه التفوق ، وأعطه الفضل ، وانسب إليه ما تحاول بأن تنسبه إلى نفسك من العظمة . حاول أن **تختفى ليظهر الله ، ولتظهر أخوتك** ...

● **وإن لم تستطع أن تخلى ذاتك ، فعلى الأقل لا تضع فوقها ثقلاً جديداً من الإرتفاع ، حتى لا تنوء نفسك تحت ثقل إرتفاعك ...**

على الأقل ... لا تكبر ذاتك . لا تتحدث عن نفسك ، لا تشرح للناس فضائلك . لا تسرد قصصاً يفهمون منها شيئاً عالياً عنك ...

ضع أمامك صورة المسيح فى إخلائه لذاته ...



مِلْءُ الزَّمَان

« ولكن لما جاء ملء الزمان ،
أرسل الله إبنه مولوداً من إمرأة
تحت الناموس »

(غل ٤ : ٤) .

ملء الزمان :

إن إنتظار « ملء الزمان » هو درس روحى عميق نستفيده فى حياتنا ، عندما نتأمل قصة التجسد وكيف حدد الله ميعادها .

عندما أخطأ آدم وحواء وعدهما الله بالخلاص ، قائلاً لهما إن نسل المرأة سيسحق رأس الحية . وإنجبت المرأة قايين وهابيل وشيث ... ولم يحدث أن أحداً منهم سحق رأس الحية . بل ظلت الحية رافعة رأسها فى خطر ، حتى كادت تهلك العالم كله فى أيام نوح ...

- فإلى متى يارب ننتظر ؟ متى تحقق وعدك بالخلاص ؟

- « ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التى جعلها الآب فى سلطانه » (أع ١ : ٧) . فاصبروا وإنتظروا خلاص الرب . وكل شيء سيتم فى حينه ، فى ملء الزمان .

إن الله يعمل فى الوقت المناسب ، حين يرى العمل والظروف كلها تساعد على هذا العمل . الله طويل الأناة فى تدبيره . ومعالجته للمشاكل ربما تأخذ وقتاً ولكنها تكون قوية ونافعة .

متى نفذ الرب وعده بالخلاص ؟ نفذه بعد آلاف السنين ...

والحكمة فى ذلك سنوضحها فيما بعد . ولكننا نقول الآن : « إن يوماً عند الرب كألف سنة ، وألف سنة عنده كيوم واحد » (٢ بط ٣ : ٨) كل تلك الآلاف عند الله كأنها لحظة أو طرفة عين .

أما البشرية فإنها شغوفة بأن تنهى كل شيء بسرعة ... حمى الإسراع هى حمى تنتاب البشر جميعاً . تريد التعجل فى كل شيء ، ولا تستطيع صبراً على شيء . والناس يجرون وراء حاجاتهم جرياً بدون تفكير فى غالبية الأوقات .

محبة العجلة والإسراع :

● وعد الرب أبانا إبراهيم بأن يكون له نسل ، مثل نجوم السماء ورمل البحر . وإنتظر إبراهيم طويلاً ولم يعط نسلاً كنجوم السماء ... ولا حتى إبناً واحداً ... ماذا

يارب ، هل نسيت مواعيدك ؟ **كلا ، إننى لم أنس ، ولكنك أنت الذى تريد أن تتعجل الأمور قبل مواعيدها** ... « تقو وليتشدد قلبك ، وإنتظر الرب » ...

وعاد إبراهيم ، فإنتظر مدة أطول ، ولكن النسل لم يعط له ... فبدأ اليأس يتطرق إلى قلبه ، ودفعه إليأس إلى أن يدخل على جاريته هاجر ، وينجب منها إبناً ... ولكن مشيئة الله ظلت كما هى « بسارة يدعى لك نسل » (تك ١٧ : ٩) ... وعاد إبراهيم فإنتظر سنوات أخرى ...

وحتى بعد ولادة إسحق ، مرت عليه عشرات السنوات ، ومازال الوعد الخاص بنجوم السماء ورمل البحر ينتظر التحقيق ... وعاد إبراهيم فاتخذ قطورة زوجة له . فولدت له زمران و يقشان ومديان و يشباق وشوحا (تك ٢٥ : ١ ، ٢) ... لم تكن مشيئة الرب فى كل هؤلاء ، فأعطاهم إبراهيم عطايا وصرفهم عن إسحق إبنه ... وإنتظر حتى يحقق الرب وعده ، فى ملء الزمان ... بطريقته الهادئة ، التى لا تعجل فيها ...

• إن اليأس من وعود الله ومواعيده يدعو إلى التعجل . والعجلة تدعو إلى إستخدام الطرق البشرية . والطرق البشرية تتنافى مع طرق الله الصالحة . وسنأخذ مثلاً لذلك رفقة زوجة إسحق .

قال الرب لرفقة وهى بعد حبلى : « فى بطنك أمتان ، ومن أحشائك يفترق شعبان : شعب يقوى على شعب ، وكبير يُستعبد لصغير» (تك ٢٥ : ٢٣) . والكبير هو عيسو، يستعبد للصغير الذى هو يعقوب .

كيف هذا يارب ؟ كيف يُستعبد الكبير للصغير ؟ طالما هو البكر فهو السيد . فهل سيفقد البكورية ؟ كيف يكون ذلك ؟

يجيب الرب : اتركوا هذه الأمور لى ، سأعالجها بطريقتى الخاصة ، الهادئة الصالحة . ومرت الأيام والسنون ... أين يارب وعدك ؟ يجيب : إنتظروا ، سيتم كل شىء فى حينه ، فى ملء الزمان . ثم أتى اليوم الذى طلب فيه إسحق صيداً من إبنه عيسو، لكى يباركه . وهنا لم تستطع رفقة أن تحتمل ، فقدمت حيلة بشرية لأبنها يعقوب ليأخذ بها البركة عن طريق خداعه لأبيه ...

لماذا أسرعت رفقة ؟ ولماذا لم تنتظرى الرب ؟ ولماذا لجأت إلى الطرق البشرية الخاطئة التى لا تتفق مع مشيئة الله الصالحة ؟ إنها حمى الإسراع وعدم إنتظار ملء الزمان ...

وماذا كانت النتيجة ؟ كانت سنوات طويلة من المتاعب والآلام ، قضاها يعقوب شريداً هارباً وخائفاً من أخيه . ومتعباً من معاملة لابان السيئة وخداعه له . وقد سجل يعقوب ملخص حياته هذه بقوله : « أيام سنى غربتى ... قليلة وردية » (تك ٤٧ : ٩) .

حنة أيضاً كانت تطلب إبناً من الرب ، وكانت ضرتها تغيظها غيظاً . وبدا كما لو أن الرب كان يسمع . ويظل ساكتاً ! ...

ومرت الأيام ، وحنة ماتزال عاقراً « وهكذا صار سنة بعد سنة ، كلما صعدت إلى بيت الرب أن (ضرتها فننة) كانت تغيظها . فبكت ولم تأكل » (١ صم ١ : ٧) . والرب يسمع و يرى ، ومع ذلك يبدو ساكتاً لا يعمل شيئاً ! ... إلى متى يارب لا تستجيب ؟ إلى متى تحتمل بكاء حنة من إغاظة ضرتها ؟

يجيب الرب : إنتظروا ملء الزمان . إن الذى يتعبكم ليس هو طول أناتى ، بل الذى يتعبكم هو حمى الإسراع . إنتظروا ، فالإنتظار له فائدة ...

وكان من فائدة الإنتظار أن حنة نذرت نذراً أن تعطى إبنها للرب كل أيام حياته . وقد كان ، وولد لها صموئيل .

ولد صموئيل فى ملء الزمان ، متأخراً جداً . ولكنه كان أفضل من جميع أولاد فننة ، ضرة أمه التى كانت تغيظها ... من هم أولاد فننة ؟ إننا لا نعرف شيئاً عنهم ولا حتى عن أسمائهم ، أما صموئيل فيعرفه الجميع ...

ليتنا إذن فى معاملاتنا للرب ، نصبر ، وننتظر ملء الزمان .

إن الضيقات تحتاج إلى طول أناة ، حتى يرفعها الرب عنا فى الحين الحسن ، فى ملء الزمان ، بعد أن تكون قد أخذنا بركتها . ولكننا أحياناً لا نفعل هكذا بل نضيق بسرعة ، ونصرخ : « لماذا يارب تركتنا ؟ لماذا لم تسمع الصلاة ؟ » ...

قد يكون لك مريض تطلب شفاءه ، وتلح فى ذلك . وقد يبطىء الرب فى الإستجابة حتى يأتى ملء الزمان الذى يحدده للمريض حسب حكمته فى إختيار الأوقات . أما أنت فتضجر وتصيح فى ضجرك : « ليه يارب ما بتسمعش ؟ أمال إيه لازمة الصلاة ؟ أمال إيه فايدة سر مسحة المرضى !! » وتعمل خناقة مع ربنا ... ليس لأن الله قد أخطأ فى حقك ، وإنما بسبب محبتك للإسراع وعدم إنتظارك ملء الزمان .

ملء الزمان هو الوقت المناسب :

بنفس حكمة ملء الزمان ، إنتظر الرب حتى يعد كل شيء لتجسده ، ثم بعد ذلك نزل إلينا ، فى الوقت المناسب ...

لم يكن هناك وقت مناسب أكثر من موعد مجيئه بالذات . كان كل شيء ممهداً ، وكل شيء معداً . لذلك كان عمل مجيئه قوياً ، وكان تقبل الناس له سريعاً ...

كانت النبوءات قد إكتملت ، وكذلك الرموز . وأعد الرب فهم الناس لها خلال مدى طويل ، حتى يستطيعوا أن يستوعبوها عندما يتم المكتوب و يتحقق الرمز...

خذوا لذلك مثالاً هو فكرة الذبيحة والفداء :

كيف تدرج الله بهم من الذبيحة التى غطى آدم وحواء عريهما بجلدها ، إلى ذبيحة هابيل التى « من أبكار غنمة ومن سمانها » ، إلى فكرة ذبيحة الإبن الوحيد التى تمثلت فى إسحق ، إلى شروط الذبيحة التى بلا عيب ، التى تحمل خطية غيرها وتموت عنه ... وتركهم آلافاً من السنين حتى إحتضنوا الفكرة وإستوعبوها وصارت من بديهياتهم ...

إن الله طريقته هادئة وطويلة المدى ، ولكنها منتجة ونافعة ...

صدقونى ، لو أن الله صبر كل تلك الآلاف من السنين حتى يجد العذراء الطاهرة التى تستحق أن يولد منها الرب ، والتى تحتمل أن يولد منها الرب ، لكان هذا وحده سبباً كافياً .

وكان ينبغى أن ينتظر حتى يوجد الرجل البار الذى تعيش تلك العذراء فى كنفه ، ويحفظها فى عفتها ، ويحتمل أن تحبل من الروح القدس ، و يقبل الفكرة ، يحمى الفتاة ، و يعيش كأنه أب لإبنها فى نظر المجتمع ...

وكان ينبغى الإنتظار حتى يولد الملاك الذى يعد الطريق قدام ملك الملوك ، أعنى يوحنا المعمدان ذا الشخصية الجبارة والتأثير العميق . الذى يستطيع أن يقول : « فى وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه ، هو الذى يأتى بعدى ، الذى صار قدامى ، الذى لست بمستحق أن أحل سيور حذائه » (يو ١ : ٢٧) « و ينبغى أن ذاك يزيد ، وأنى أنا أنقص . الذى يأتى من فوق ، هو فوق الجميع . الذى يأتى من السماء هو فوق الجميع ... » (يو ٣ : ٣٠ ، ٣١) .

لعل أحداً يسأل : ولماذا لم يوجد الله كل هؤلاء منذ زمن ؟ نجيب بأن الله لا يرغم البشر على البر والقداسة. إنه ينتظر حتى توجد الآنية المستعدة بكامل إرادتها ...

هناك أسباب عديدة جداً توضح شيئاً من حكمة الرب فى الإنتظار حتى يأتى ملء الزمان . وأوضحها هو إعداد العالم كله وتهيئته لقبول فكرة التجسد وفكرة الفداء ...

وأخيراً ، عندما كمل كل شيء « لما جاء ملء الزمان ، أرسل الله إبنه مولوداً من إمرأة تحت الناموس ، ليفتدى الذين تحت الناموس ، لننال التبنى » (غل ٤ : ٤ ، ٥) .



عِمَّانوئيل
الذى تفسيره « الله معنا »

« هوذا العذراء تحبل وتلد إبناً
و يدعون إسمه عمانوئيل الذى
تفسيره الله معنا »

(مت ١ : ٢٣)

« ها العذراء تحبل وتلد إبناً
وتدعو إسمه عمانوئيل »

(إش ٧ : ١٤)

الله معنا :

جميل هذا الإسم الذى دعى به السيد المسيح فى مولده ، عمانوئيل ، الله معنا . إسم فيه الكثير من التعزية ، إذ فيه لكثير من حب الله لنا .

إن بركة عيد الميلاد هى هذه : أن نشعر أن المسيح هو الله معنا ، الله فى وسطنا ، ساكن معنا ، وساكن فينا .

الله فى الحقيقة يحب البشر جداً ، مسرته فى بنى البشر . يحب أن يهب الإنسان لذة الوجود معه ، ويحب قلب الإنسان كمكان لسكناه .

منذ أن خُلق الإنسان ، خلقه على صورته ومثاله . وأراد أن يجعله موضعاً لسكناه ، أراد أن يسكن فى قلب الإنسان ويحل فيه .

ومرت آلاف السنوات ، وإلهنا الصالح يحاول أن يجد له موضعاً فى الإنسان ، ولكن الجميع كانوا قد زاغوا وفسدوا ، ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد ... لم يجد الرب فى قلوبهم موضعاً يسند فيه رأسه ... فماذا عنك أنت أيها المبارك ؟

إن الله ينظر إلى قلبك و يقول : « هذا هو موضع راحتى إلى أبد الأبد . ههنا أسكن لأنى إشتهيته » (مز ١٣٢ : ١٤) .

مسكن الله مع الناس :

إن سكنى الله مع الناس وفى وسطهم ، هى قصة قديمة . إنها قصة خيمة الإجتماع وتابوت العهد ، التى فيها نرى الله يسكن وسط شعبه .

وكما أن سكنى الله مع الناس دلالة خيمة الإجتماع ، هى أيضاً دلالة أورشليم السمائية فى الأبدية ، التى قيل عنها : « هوذا مسكن الله مع الناس . وهو سيسكن معهم . وهم يكونون له شعباً . الله نفسه يكون معهم » (رؤ ٢١ : ٣) .

وقد وضح هذا المعنى بتشبيه أقوى فى حبه :

قال إنه الرأس ونحن الأعضاء ، وقال الرسول عنا ككنيسة إننا : « جسد المسيح » . ولعل مثل هذا التشبيه هو ما قصده الرب بقوله : « أنا الكرمة وأنتم الأغصان » (يو ١٥ : ٥) ، وطلب منا أن نثبت فيه كما تثبت الأغصان فى الكرمة .

ولعل هذا أيضاً هو جزء من الصلاة الطويلة التى صلاها فى بستان جثسمانى ، حيث قال عن تلاميذه : « **أنا فيهم** ، وأنت فىَّ ، ليكونوا مكملين إلى واحد » (يو ١٧ : ٢٣) .

الله الذى حل فى بطن العذراء لكى يأخذ منها جسداً ، يريد أن يحل فى أحشائك لكى يملأك حباً ... إن أفضل مسكن لله هو فيك . الله لا يسر بالسماء مسكناً له ، بل هو واقف على بابك يقرع لكى تفتح له (رؤ ٣ : ٢) . وهو يعتبر جسدك هيكلاً لروحه القدوس ويسكن روح الله فيه (١ كو ٣ : ١٦) .

الله الذى يصر فى الحاح أن يسكن فيك ، يخاطب نفسك الحبيبة إليه بتلك العبارات المؤثرة : « إفتحى لى يا أختى يا حمامتى يا كاملتى ، فإن رأسى قد إمتلأ من الطل ، وقصصى من ندى الليل » (نش ٥ : ٢) . وتصور أن الله واقف طول هذه المدة يقرع على بابك محتملاً من أجلك الطل وندى الليل .

سماؤه الحقيقية هى قلبك ، لذلك يطلب إليك على الدوام قائلاً : « يا إبنى أعطنى قلبك ... » (أم ٢٣ : ٢٦) .

إنه يقول لكل نفس بشرية ما قاله المرتل فى المزمور : « إسمعى يا إبنتى وأنظرى وأميلى سمعكِ ، وإنسى شعبكِ وبيت أبيكِ ، فإن الملك قد إشتهى حسنكِ ، لأنه هو ربك » (مز ٤٥ : ١٠ ، ١١) .

إن عبارة « الله معنا » لم يقصد بها أن يكون عمانوئيل معنا فى فترة تجسده فقط ، وإنما على الدوام .

وهكذا يقول الرب : « ها أنا معكم كل الأيام وإلى إنقضاء الدهر » (مت ٢٨ : ٢٠) . ويقول أيضاً : « إن إجتمع إثنان أو ثلاثة بإسمى ، فهناك أكون فى وسطهم » (مت ١٨ : ٢٠) . ويظل الرب معنا فى الأبدية التى لا تنتهى . وعن هذا الأمر قال للآب : « أيها الآب ، أريد أن هؤلاء الذين أعطيتنى **يكونون معى ، حيث أكون أنا** » (يو ١٧ : ٢٤) . وقد طمأننا من جهة هذا الأمر فقال : « وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً ، آتى أيضاً وآخذكم إلىَّ ، حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً » (يو ١٤ : ٣) . وهكذا قال يوحنا الرائى عن أورشليم السمائية **إنها : « مسكن الله مع الناس »** (رؤ ٢١ : ٣) .

هل إلى هذا الحد يارب ؟ نعم : أنا أريد أن أسكن معكم ، وأحل فيكم . أجد لذة فى عشرتكم . أحب أن أكون فى وسطكم ... أنا عمانوئيل ، الله معكم ...

إن بركة عيد الميلاد تتركز فى عبارة (عمانوئيل) . الله معنا . **فإن كنت يا أخى تحس أنك مع الله ، والله معك ، تكون قد تمتعت فعلاً ببركة عيد الميلاد ...**

لا تظن أن عيد الميلاد هو اليوم الذى إنتهينا فيه من الصوم وبدأنا نفطر!! أو أن عيد الميلاد هو اليوم الذى عملنا فيه قداس العيد بطقوسه وألحانه الفرايحى ... عيد الميلاد من الناحية الروحية هو عشرة عمانوئيل ، الذى هو الله معنا ...

إن الله لا يريد منك شيئاً غير قلبك ليسكن فيه ... كل عبادتك وصلواتك هى مجرد عبادة خارجية ، إن لم يكن لله مسكن داخل قلبك .

• **الله يريد أن يقيم صداقة معك** . يقول الكتاب : « وسار أخنوخ مع الله ، ولم يوجد لأن الله أخذه » (تك ٥ : ٢٤) . منظر جميل أن نتخيل أخنوخ وهو سائر مع الله . وشعور عميق كيف أن الله لم يمكنه الإستغناء عن أخنوخ ، فأخذه إليه ...

إن بولس الرسول يشرح مجىء الرب الثانى على السحاب ، وإختطافنا إليه ، فيختم هذا المشهد الجميل بقوله : « **وهكذا نكون كل حين مع الرب** . لذلك عزوا بعضكم بعضاً بهذا الكلام » (١ تس ٤ : ١٧ ، ١٧) .

وهنا على الأرض نلمح ملاحظة قوية فى حياة القديسين ... **وهى أن القديسين كانوا يشعرون دائماً بوجودهم فى حضرة الله . كانوا يرونه معهم على الدوام ، أمامهم وعن يمينهم ...**

إنها عبارة متكررة على فم إيليا النبى إذ يقول : « حى هو رب الجنود الذى أنا واقف أمامه » (١ مل ١٨ : ١٥) . من فينا شعر باستمرار أنه واقف أمام عمانوئيل الذى هو الله معنا ؟ ...

داود أيضاً كان يحس على الدوام بوجود الله معه إذ يقول : « رأيت الرب أمامى فى كل حين ، لأنه عن يمينى فلا أتزعزع » (مز ١٦ : ٨) . ما هذا يا داود ؟ هل الرب أمامك أم عن يمينك ؟ هو معى فى كل حين وفى كل موضع ، وفى كل إتجاه أشعر بوجود الله ...

• **إن الشخص الذى يشعر بأن الله أمامه ، لا يمكن أن يخطىء ، سيخجل حتماً من الله** . ويقول : « هوذا الله يرانى وأنا أعمل ، هوذا الله يسمعنى وأنا

أتكلم » . الله له عينان كلهيب نار تخترقان الظلام . فلو أننا شعرنا أن الله كائن معنا ، لكان من المستحيل علينا أن نخطىء . إن خطايانا دليل على أننا غير شاعرين بوجوده معنا .

هناك حادثة حدثت مع القديس مار أفرام السرياني تثبت هذا الأمر. في إحدى المرات هددته إمرأة ساقطة أن تشهر به إن لم يطاوعها و يفعل الشر معها . فتظاهر بالموافقة على شرط أن يحدث ذلك في سوق المدينة . فإندهشت المرأة وقالت له : [كيف نفعل هذا في السوق ؟! ألا تستحى من الناس وهم حولنا ؟!] فأجابها القديس : [إن كنت تستحين من الناس ، أفما تستحين من الله الذى عيناه تخترقان أستار الظلام ؟!] . وكان لكلام القديس تأثيره العميق في المرأة فتابت على يديه .

هل تظن يا أخي أن الملحدين فقط هم الذين ينكرون وجود الله ؟! اؤكد لك أنك في كل خطية ترتكبها تكون قد نسيت وجود الله أو أنكرته عملياً . لو كنت **مؤمناً فعلاً بوجوده أمامك ، لخجلت وخشيت ... لا شك أن إحساسنا بعمانوئيل - الله معنا - يعطينا الطهارة والنقاوة والقداسة ، على الدوام .**

- **وإحساسنا بوجود عمانوئيل ، الله معنا ، يعطينا الشجاعة وعدم الخوف .**

لما بدأ يشوع خدمته ، قال له الرب : « لا يقف إنسان في وجهك كل أيام حياتك . كما كنت مع موسى أكون معك ، لا أهملك ولا أتركك ... تشدد وتشجع ، **لا ترهب ولا ترتعب ، لأن الرب إلهك معك حيثما تذهب** » (يش ١ : ٥ ، ٩) .

الإنسان الذى يشعر بوجود الله ، يشعر بقوة عظيمة معه ، تزيل منه كل خوف وكل إضطراب ، وتهبه الثقة والإطمئنان ... واحد يسألك سؤالاً محرجاً ، فتخاف ، وتكذب ! لماذا تخاف ؟ **إن الله معك ... لا يقف إنسان في وجهك كل أيام حياتك .**

خطية الخوف هي خطية عدم إيمان ، عدم إيمان بعمانوئيل ورعايته . كان داود شجاعاً . وكان يقول : « الرب نورى وخلاصي ممن أخاف ... » « وإن نزل عليَّ جيش فلن يخاف قلبي ، وإن قام عليَّ قتال ففي هذا أنا مطمئن » (مز ٢٧ : ١ ، ٣) . « الرب عوني فلا أخشى ، ماذا يصنع بي الإنسان ؟ » (مز ١١ : ٦) . وفي هذه العبارات نلمح الفرق بين شجاعة القديسين وشجاعة أهل العالم . شجاعة أهل العالم سببها ثقتهم بقوتهم ، وشجاعة القديسين سببها ثقتهم بوجود عمانوئيل ، الله معهم .

ظهر الله لبولس الرسول فى رؤيا بالليل وقال له : « لا تخف ، بل تكلم ولا تسكت ، لأنى أنا معك . ولا يقع بك أحد ليؤذيك » (أع ١٨ : ١٠) .

القديس بولس أخذ هذه العبارة ، وعاش بها ، ممتلئاً من الإيمان قوة . وقف قدام ليسياس الأمير، وفيلكس الوالى ، وأمام العزيز فستوس وأغريباس الملك . ولم يستطع أحد منهم أن يؤذيه . بل على العكس خافوا منه . لماذا خفتم أيها الملوك والأمراء من هذا الأسير المقيد بالسلاسل ؟ يجيبون : لم نخف منه ، وإنما من الإله الذى معه ، من الرب الساكن فيه ... **بولس هذا فى شخصه نستطيع أن نقدر عليه . ولكن لا نقدر عليه عندما يقول: « أحيا لا أنا ، بل المسيح الذى يحيا فىَّ » (غل ٢ : ٢٠) .**

قبض ليسياس الأمير على القديس بولس ، فماذا فعل به ؟ هل آذاه فى شىء ؟ كلا . بل أعد قوة مسلحة تتكون من ٢٠٠ عسكرى ، و ٧٠ فارساً ، ٢٠٠ رامح ، فأركبت القديس بولس ، وأوصلته سالماً إلى فيلكس الوالى بقيصرية ... (أع ٢٣ : ٢٣ ، ٢٤) صحيح يارب ، أنت معنا . وقف القديس بولس أمام فيلكس « وبينما كان يتكلم عن البر والتعفف والدينونة العتيدة أن تكون ، إرتعب فيلكس ... » (أع ٢٤ : ٢٥) .

إرتعب الوالى من أسيره المقيد ، من القوة العجيبة التى تخرج منه ، من الله الذى معه ، من عمانوئيل ...

وقف القديس بولس أمام الملك أغريباس ، فكانت النتيجة أن قال له الملك : « بقليل تقنعنى أن أصير مسيحياً » (أع ٢٦ : ٢٨) . وشهد عنه قائلاً : « إن هذا الإنسان ليس يفعل شيئاً يستحق الموت أو القيود » .

هذه فكرة عن عمل عمانوئيل إلهنا ، عندما يكون معنا ، ويحطم كل قوة أمام عبيده ، فلا يقع بهم أحد ليؤذيهم .

هذا هو عمانوئيل الذى كان مع الثلاثة فتية فى أتون النار « فلم تكن للنار قوة على أجسامهم ، وشعرة من رؤوسهم لم تحترق ، وسراويلهم لم تتغير ، ورائحة النار لم تأت عليهم » (دا ٣ : ٢٧) ، حتى إندهل نبوخذ نصر قائلاً : « ليس إله آخر يستطيع أن ينجى هكذا » ...

مُصَالحة السَّماء وَالارض

« ولكن الكل من الله الذى
صالحنا لنفسه بيسوع المسيح
وأعطانا خدمة المصالحة »

(٢ كو ٥ : ١٨) .

أول شيء نتذكره فى ميلاد الرب هو عمق محبته للناس . فن أجل محبته لهم سعى لخلاصهم . ومن أجل محبته لهم أخلى ذاته ، وأخذ شكل العبد ، ونزل من السماء ، وتجسد وصار فى الهيئة كإنسان (فى ٢ : ٧ ، ٨) .

إن التجسد والفداء ، أساسها محبة الله للناس . فهو من أجل محبته لنا ، جاء إلينا . ومن أجل محبته لنا ، مات عنا . لهذا يقول الكتاب : « هكذا أحب الله العالم ، حتى بذل إبنه الوحيد ... » (يو ٣ : ١٦) . أنظروا ماذا يقول : « هكذا أحب ... حتى بذل » . نحن إذن فى تجسده ، نذكر محبته التى دفعته إلى التجسد . وإعترافاً منا بهذه المحبة ، نتغنى بها فى بدء كل يوم ، إذ نقول للرب فى صلاة باكر : « أتيت إلى العالم بمحبتك للبشر ، وكل الخليقة تهللت بمجيئك » .

قبل ميلاد السيد المسيح ، كان هناك خصومة بين الله والناس . فجاء السيد المسيح لكى يصالحنا مع الله ، أو جاء لكى نصطلح معه هو . قبل مجيئه كانت هناك خصومة بين السماء والأرض . ومرت فترة طويلة كانت فيها شبه قطيعة بين السمائيين والأرضيين : لا رؤى ، ولا أحلام مقدسة ، ولا أنبياء ، ولا كلام من الله للناس ، ولا ظهورات مقدسة ... ولا أية صلة واضحة ... !! كانت الأرض بعيدة عن السماء طوال تلك الفترة ...

كانت خطايا الناس كليالى الشتاء : باردة ومظلمة وطويلة . وكانت تحجب وجه الله عنهم . وكانت الخصومة بينهم وبين الله ، يمثلها فى الهيكل الحاجز المتوسط الذى لا يستطيع أحد من الشعب أن يجتازه إلى قدس الأقداس ... وزادت خطايا الناس ، وإحتدم غضب الله عليهم ، وإستمرت القطيعة . ولم يحاول البشر أن يصطلحوا مع الله .

ثم جاء السيد المسيح ، فأقام صلحاً بين السماء والأرض ، وأرجع الصلة بينهما . وبدأت تباشير الصلح تظهر . ورجعت العلاقات كما كانت من قبل وأكثر...

ولكى أوضح الأمر لكم أقول : تصوروا أن دولتين متخاصمتين ، قد رجع الصلح بينهما ، فماذا تكون النتيجة : طبعاً ترجع العلاقات كما كانت : يعود التمثيل السياسى بينهما ، وإرسال السفراء والقناصل ... وفى ظل المودة الجديدة تبرم إتفاقية إقتصادية ، إتفاقية ثقافية ، إتفاقية عسكرية ... المهم أنه توجد علاقة وصلة . كذلك لنفرض أن

شخصين متخاصمين قد إصطلحا ، فى ظل الصلح نرى العلاقات قد بدأت ترجع ، تعود التحيات والإبتسامات والزيارات والأحاديث ، وتعود المودة ... هكذا حدث بين السماء والأرض . **وبدأت تباشير الصلح تظهر بمجىء السيد المسيح أو فى خطوات وممهدات مجيئه ...**

تباشير الصلح

وأول شىء شاهدناه من تباشير هذا الصلح هو كثرة نزول الملائكة إلى الأرض . فى مجىء السيد المسيح وقبيل مجيئه إزداد ظهور الملائكة بشكل واضح . ظهورات متوالية ، فردية وجماعية ، كسفراء للرب . وتهلل الملائكة بفرح عظيم ، وأرادوا أن يشتركوا فى هذا الحدث العجيب وهو تجسد الرب وميلاده فظهر ملاك يبشر زكريا بولادة يوحنا (لو ١ : ١١) ، وملاك يبشر العذراء بولادة السيد المسيح (لو ١ : ٢٦) ، وملاك ظهر ليوسف فى حلم يخبره بحبل العذراء (مت ١ : ٢٠) . وملاك ظهر للرعاة يبشرهم بالميلاد الإلهى (لو ٢ : ٩) . وملاك ظهر ليوسف فى حلم وأمره أن يهرب بالطفل يسوع وأمه إلى مصر (مت ٢ : ١٣) . بالإضافة إلى هذا جمهور من الملائكة الذين ظهروا مسبحين الله وقائلين : « المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرة » (لو ١٢ : ٢٣ ، ١٤) .

إن ظهور الملائكة بهذه الكثرة ، يدل على أن العلاقات بدأت ترجع بين السماء والأرض ، وتدل على فرح الملائكة بالخلاص المزمع ، وإشتراكهم مع الأرضيين فى هذا الفرح .

وظهور الملائكة فى فترة الميلاد كان مجرد طلائع للملائكة الذين ملأوا العهد الجديد ... ملائكة كانوا يخدمون الرب على جبل التجربة (مر ١ : ١٣) ، وملائكة القيامة الذين ظهروا للنسوة ، ومثل الملاكين اللذين طمأنا الرسل وقت صعود الرب (أع ١ : ١٠) ... كان هؤلاء جميعاً طلائع نعرف بهم الملائكة غير المرئيين المحيطين بنا الآن ، الذين قال عنهم القديس بولس الرسول : « أليس جميعهم أرواحاً خادمة ، مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص » (عب ١ : ١٤) .

ولم تكتف السماء فى صلحها مع الأرض بظهور الملائكة ، بل إمتدت إلى الأحلام المقدسة بما فيها من توجيه ومن إعلان .

إجتمع الأمران معاً بالنسبة ليوسف الصديق : ملاك ظهر له فى حلم يخبره بالحبل المقدس (مت ١ : ٢٠) . وملاك ظهر له فى حلم يأمره بالذهاب إلى مصر (مت ٢ : ١٣) . ثم بعد ذلك ظهر له ملاك فى حلم فى أرض مصر يأمره أن يرجع إلى بلده لأنه : « قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبى » (مت ٢ : ٢٠) . ولما خاف أن يذهب إلى اليهودية بسبب أن أرخيلاوس كان يملك هناك ، « أوحى إليه فى حلم » أن ينصرف إلى نواحى الجليل ، فذهب وسكن فى الناصرة (مت ٢ : ٢٢) .

هؤلاء الملائكة الذين ظهروا ليوسف الصديق فى الأحلام ، يعطوننا فكرة عن سمو مكانة العذراء . فالعذراء ظهر لها الملائكة عياناً فى صحوها ، رأتهم بعينيها وسمعتهم بأذنيها ، أما يوسف الصديق فرأى وسمع فى الأحلام . إن هذا يذكرنا بالفرق الكبير بين مركز موسى النبى ومركز هارون ومريم . اللذين وبخهما الرب عندما تقولا على موسى ، فقال لهما : « إن كان منكم نبى للرب ، فبالرؤيا إستعلن له ، فى الحلم أكلمه . وأما عبدى موسى فليس هكذا بل هو أمين فى كل بيتى . فماً إلى فم وعياناً أتكلم معه » (عد ١٢ : ٦-٨) .

لقد كلم الملائكة يوسف الصديق عن طريق الأحلام . وهكذا حدث أيضاً مع المجوس ، بعد أن رأوا الطفل يسوع ، وقدموا له هداياهم : « أوحى إليهم فى حلم أن لا يرجعوا إلى هيرودس ، فإنصرفوا إلى كورتهم » (مت ٢ : ١٢) .

وحديث المجوس يذكرنا بظهورات مقدسة أخرى صاحبت حدث الميلاد ، ونقصد أولاً النجم الذى ظهر للمجوس ، وأرشدهم إلى مكان المزود المقدس (مت ٢ : ١ - ١٢) . لم يكن ذلك النجم نجماً عادياً - كما شرح القديس يوحنا ذهبي الفم - بل كان قوة إلهية أرشدتهم . ذلك أن مساره كان غير عادى من الشرق إلى الغرب ، وكان يظهر حيناً ، ويختفى حيناً آخر ، ويقف حيناً ثالثاً . كذلك إرشاده لمكان المزود معناه أنه هبط من علوه هبوطاً يوضح المكان وبخاصة لأن الكتاب يقول عنه أنه : « وقف حيث كان الصبى » . هذا النجم كان ظهوراً مقدساً ولم يكن نجماً كباقى النجوم ...

وفى صلح السماء مع الأرض الذى جلبته بركة الميلاد لم تقتصر الصلة على ظهور الملائكة والأحلام المقدسة والظهورات المقدسة ، بل أيضاً رجعت روح النبوة مرة أخرى ، ورجع عمل الروح القدس فى الناس وإمتلاؤهم منه .

نقرأ عن يوحنا المعمدان فى بشارة الملاك عنه أنه : « من بطن أمه يمتلىء من الروح القدس » (لو ١ : ١٥) . ونقرأ فى بشارة الملاك للعذراء قوله لها : « الروح القدس يحل عليكِ ، وقوة العلى تظللكِ » (لو ١ : ٣٥) . ونقرأ فى زيارة العذراء مريم للقديسة اليصابات أنه : « لما سمعت اليصابات سلام مريم ، إرتكض الجنين فى بطنها ، وإمتلأت اليصابات من الروح القدس » (لو ١ : ٤١) . ونقرأ عن زكريا الكاهن - بعد إنقضاء فترة صمته - « وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ قائلاً ... » (لو ١ : ٦٧) . نقرأ أيضاً عن سمعان الشيخ أنه كان رجلاً باراً : « والروح القدس كان عليه وكان قد أوحى إليه بالروح القدس ... » (لو ٢ : ٢٥، ٢٦) .

عجيب جداً هذا العمل الواسع للروح القدس فى الناس فى تلك الفترة المقدسة . وعجيب هذا الإمتلاء من الروح القدس وهذا الحلول ، وهذا التنبوء أيضاً ... لقد تنبأ زكريا الكاهن ، وتنبأت إمرأته اليصابات ، وتنبأ سمعان الشيخ ، وتنبأت حنة بنت فنوئيل (لو ٢ : ٣٦) . وبدا أن الله رجع يتكلم فى أفواه الأنبياء ... وكل ذلك كان من بوادر إنتهاء الخصومة بميلاد السيد المسيح ، أو كانت هذه هى تباشير الصلح الذى تم على الصليب .

وكان من تباشير الصلح أيضاً رجوع المعجزات . والمعجزات دليل عمل يد الله مع الناس ... كان إنفتاح رحم اليصابات العاقر هو المعجزة الأولى . وكان صمت زكريا الكاهن ثم إنفتاح فمه بعد تسعة أشهر معجزتين أخريين . وكانت معجزة المعجزات هى ولادة السيد المسيح من عذراء . وكان إرتكاض الجنين بإبتهاج فى بطن اليصابات تحيه للجنين الإله الذى فى بطن العذراء هو معجزة أخرى . ولا نستطيع أن نحصى المعجزات التى رافقت ميلاد المسيح وطفولته . أما معجزاته فى أرض مصر ، فلعل أبرزها هو ما يشير إليه أشعياء النبى قائلاً : « هوذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر . فترتجف أوثان مصر من وجهه ، ويذوب قلب مصر داخلها » (إش ١٩ : ١) . وفعلاً سقطت أوثان مصر بدخول الرب إليها ...

كل هذا يدل على أن يد الرب قد بدأت تعمل ، وأن ميلاد السيد المسيح كان مقدمة لصلح السماء مع الأرض ، الصلح الذى قلنا إن أولى تباشيره كان ظهور الملائكة . ويحسن أن نقف وقفة تأمل بسيطة عند ظهورات الملائكة هذه ...

● **أول ملاك ظهر وذكره الإنجيل المقدس ، كان هو الملاك الذى ظهر لزكريا الكاهن . إنها لفتة كريمة من الرب يعطى بها كرامة للكهنوت ، فيكون** ظهور الملائكة أولاً للكهنة ، بعد فترة الإحتجاب الطويلة . ولفتة كريمة أخرى للكهنوت ، أن يظهر الملاك فى مكان مقدس : « **واقفاً** عن يمين مذبح البخور » وفى لحظة مقدسة عندما كان زكريا البار يكهن للرب ويرفع البخور أمامه (لو ١ : ٨ - ١٠) ...

جميل من الرب أنه عندما أرسل خدامه السمائيين أرسلهم أولاً إلى بيته المقدس وإلى خدام مذبحه الطاهر . ولا شك أن هذا كله يشعرنا بجمال المذبح الذى وقف الملاك عن يمينه فى أول تباشير الصلح . كم بالأكثر جداً مذبح العهد الجديد فى قدسيته الفائقة للحد ، حيث ملاك الذبيحة الصاعد إلى العلو يحمل إلى الله تضرعنا ...

نعود إلى الملاك الطاهر الذى ظهر لزكريا الكاهن ...

كان ملاكاً يحمل بشارة مفرحة . لقد عاد الرب يفرح وجه الأرض التى حرمت كثيراً من أفراحه فى فترة القطيعة والخصومة . وهل هناك فرح أعظم من تبشير زوج العاقر بأنها ستلد إبناً : « لم يقم بين المولودين من النساء من هو أعظم منه » (مت ١١ : ١١) ، إبناً سيكون : « عظيماً أمام الرب » (لو ١ : ١٥) !! عبارات : « الفرح » تدفقت من فم الملاك ، فقال : « لا تخف يا زكريا ، لأن طلبتك قد سُمعت ، وإمرأتك اليصابات ستلد لك إبناً ، وتسميه يوحنا ، ويكون لك فرح ، وإبتهاج ، وكثيرون سيفرحون بولادته » .

وكانت إيحاءة جميلة من الرب فى تباشير هذا الصلح ، أن يسمى الطفل « يوحنا » ... وكلمة يوحنا معناها : « الله حنان » !!

وكأن الله يقصد أنه وإن تركنا زمناً ، إلاَّ أن محبته دائمة إلى الأبد ، « مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئها » (نش ٨ : ٧) . وأنه وإن حجب وجهه حيناً ، فإنه لا يحجب قلبه الحنون . فعلى الرغم من فترة القطيعة بين السماء والأرض التى سبقت ميلاد السيد المسيح ، وعلى الرغم من الخصومة القائمة ، كان الله مايزال كما هو ، كله حنان وشفقة ... « الله حنان » أو « الله حنون » . لعل هذا يذكرنا بقول الرب من قبل : « لأنه كإمرأة مهجورة ومحزونة الروح دعاك الرب ، وكزوجة الصبا ... لحيظة تركتك ، وبمراحم عظيمة سأجمعك . بفيضان الغضب حجبت وجهى عنك لحظة و باحسان أبدى أرحمك ... » (إش ٥٤ : ٦ - ٨) .

إنها نبوءة اشعياء عن مصالحة الرب لشعبه وكنيسته ، قد بدأت تتحقق ... تلك النبوءة العجيبة ، الجميلة فى موسيقاها ، التى بدأها الرب بنشيده العذب : « ترنمى أيتها العاقر التى لم تلد ... » (إش ٥٤ : ١) . ترى أكانت اليصابات : « العاقر التى لم تلد » رمزاً للكنيسة فى إفتقاد الرب لها ؟ وهل كان إسم إبنها يوحنا : « الله حنان » رمزاً أيضاً لمصالحة الله لكنيسته ؟ وهل ترنم اليصابات : « العاقر التى لم تلد » كان بشيراً يتحقق باقى مواعيد الله إذ يقول لكنيسته فى نفس النشيد :

« كما حلفت أن لا تعبر بعد مياه نوح على الأرض ، هكذا حلفت أن لا أغضب عليك ولا أزجرك . فإن الجبال تزول ، والآكام تتزعزع ، أما إحسانى فلا يزول عنك ، وعهد سلامى لا يتزعزع ، قال راحمك الرب » .

« أيتها الذليلة المضطربة غير المتعزية ، هأنذا أبنى بالأثمد حجارتك ، وبالياقوت الأزرق أؤسسك . وأجعل شرفاتكِ ياقوتاً ، وأبوابكِ حجارة بهرمانية ، وكل تخومك حجارة كريمة . وأجعل كل بنيكِ تلاميذ الرب ، وسلام بنيك كثيراً » (إش ٥٤ : ١١ - ١٣) .

هل كان هذا الأصحاح الرابع والخمسون من نبوءة أشعياء موضع تأمل القديسة اليصابات فى خلاص الرب القريب ، طوال الستة أشهر التى مرت ما بين بشارة الملاك لزكريا وبشارة الملاك للعذراء ؟! إن هذه الفكرة تملأ قلبى ، وتضغط على عقلى بإلحاح شديد ... ولا شك أن هذه القديسة الشيخة التى كانت تحمل إبناً نذيراً للرب فى أحشائها ، كانت تشعر أنه ليس بأمر عادى هذا الذى حدث لها . وإذ تتأمل فى هذا الفصل من إشعياء - الذى ينطبق عليها وعلى الكنيسة - يهز كيانها كله هذا « النبى الإنجيلى » إذ يقول : « ها العذراء تحبل وتلد إبناً وتدعو إسمه عمانوئيل » (إش ٧ : ١٤) .

قلنا إنه من تباشير الصلح بين السماء والأرض كان ظهور الملائكة للبشر . وكان الملاك الأول هو الذى بشر زكريا الكاهن .

● أما الملاك الثانى ، فكان جبرائيل ، الذى بشر السيدة العذراء .

نلاحظ أن هذا الملاك كان له مع العذراء أسلوب معين . لقد بدأها بالتحية ، بأسلوب كله توقير وإحترام لها . فى بشارة زكريا لم يبدأه الملاك بالتحية ، وإنما قال له : « لا تخف يا زكريا فإن طلبتك قد سمعت » . أما فى بشارة العذراء فقال لها الملاك :

« السلام لك أيتها الممتلئة نعمة . **الرب معك** » . وعندئذ ـ بعد هذه المقدمة ـ بدأ الملاك فى إعلان رسالته . وحتى هذه الرسالة أدمجها بعبارة مديح أخرى فقال : « لا تخافى يا مريم ، لأنك قد وجدت نعمة عند الله » ثم بعد ذلك بشرها بالخبر الذى جاء من أجله : « ها أنت ستحبلين وتلدين إبناً وتسمينه يسوع ... » .

إنه أسلوب إحترام عجيب يليق بالتحدث مع والدة الإله الممجدة ، الملكة الجالسة عن يمين الملك .

لم يستطع رئيس الملائكة جبرائيل أن ينسى أنه واقف أمام أقدس إمرأة فى الوجود ، وأنه واقف أمام أم سيده ، التى ستكون سماء ثانية لله الكلمة . فخاطبها بأسلوب غير الذى خوطب به الكاهن البار زكريا ...

هنا نلاحظ أنه لم يبدأ فقط صلح بين السمائيين والأرضيين ، بل بدأ تقدير وتوقير من سكان السماء لسكان الأرض فى شخص أمنا وسيدتنا العذراء مريم ... فرحباً بهذا الصلح .

- **أما الظهور الثالث ، فكان ظهور ملاك الرب للرعاة .**

هنا نجد تقدماً ملموساً فى العلاقات ، إذ لم يقتصر الأمر على أن « ملاك الرب وقف بهم » بل يقول الكتاب أكثر من هذا : « ومجد الرب ... أضاء حولهم » . وبعد أن بشرهم الملاك « بفرح عظيم » يكون « لجميع الشعب » ، وبولادة « مخلص » ، « ظهر بغتة ـ مع الملاك ـ جمهور من الجند السماوى مسبحين الله وقائلين : « المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرة » .

وهنا نسمع عبارات الفرح ، والمسرة ، والسلام ، والخلاص ... وبدلاً من ظهور ملاك واحد ، نرى جمهوراً من الجند السماوى يسبحون .

إنها تباشير الصلح العظيم ، المزمع أن يتم على الصليب . ونلاحظ أن هذا الصلح قد بدأه الله لا الناس .

الله يصالح البشرية

أول ما نتذكره فى هذا المجال ، هو أن الله يسعى لخلاص الإنسان ، حتى لو كان الإنسان لا يسعى لخلاص نفسه .

نلاحظ هذا منذ البدء : عندما أخطأ آدم وسقط ، لم يسع لخلاص نفسه ، بل نراه ـ على العكس من ذلك ـ قد هرب من الله ، وخاف من الله ، وإختبأ من الله . لم يحدث أنه سعى إلى الله ، طالباً الصفح والمغفرة ، وطالباً النقاوة والطهارة . بل إنه : « لما سمع صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة ... » إختبأ هو وإمرأته من وجه الرب (تك ٣ : ٨) . وهكذا أوجد حجاباً وحاجزاً بينه وبين الله . وبدأت الخصومة .

من الذى سعى لخلاص آدم ؟ إنه الله نفسه ، دون أن يطلب آدم منه ذلك . آدم شغله الخوف عن الخلاص أو حتى عن مجرد التفكير فيه ... وهكذا بحث الله عن آدم ... وأعطاه وعداً بأن نسل المرأة سوف يسحق رأس الحية (تك ٣ : ١٥) .

لقد أعتبر الله أن المعركة الدائرة هى بينه وبين الشيطان ، وليست بين الشيطان والإنسان . إعتبر أن قضيتنا هى قضيته هو . وإذا بنسل المرأة الذى يسحق رأس الحية هو الله نفسه الذى أتى فى ملء الزمان من نسل المرأة . هو الله إذن الذى دبر قصة الخلاص كلها ، لأنه : « يريد أن الجميع يخلصون ، وإلى معرفة الحق يقبلون » (١ تى ٢ : ٤) . هو يريد خلاصنا جميعاً ويسعى إليه ، حتى إن كنا نحن ـ فى تكاسلنا أو فى شهواتنا ـ غافلين عن خلاص أنفسنا ! ...

فى قصة الخروف الضال ، نرى أن هذا الخروف الضال لم يسع لخلاص نفسه ، وإنما ظل تائهاً وبعيداً . والراعى الصالح هو الذى جرى وراءه . هو الذى فتش عليه وسعى إليه ، وهو الذى تعب من أجله إلى أن وجده ، وحمله على منكبيه فرحاً ، ورجع به سالماً إلى الحظيرة ...

وفى قصة الدرهم المفقود ، نجد نفس الوضع أيضاً ...

فإن تعطل خلاص الإنسان ، يكون السبب بلا شك راجعاً إلى الإنسان ذاته وليس إلى الله .

وهذا الأمر واضح فى تبكيت الرب لأورشليم ، إذ قال لها : « يا أورشليم يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها . كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولم تريدوا » (مت ٢٣ : ٣٧) ... أنا أردت ، وأنتم لم تريدوا ...

مثال أخر هو عروس النشيد . الله هو الذى سعى لخلاصها « طافراً على الجبال ، وقافزاً على التلال » وقال لها : « إفتحى لى يا أختى يا حبيبتى يا حمامتى يا كاملتى ،

لأن رأسى قد إمتلأ من الطل وقصصى من ندى الليل » (نش ٥ : ٢) . وتكاسلت النفس فى الإستجابة ، وتعللت بالأعذار . فماذا كانت النتيجة ... كانت أنها عطلت عمل النعمة فيها بعض الوقت وصاحت فى ندم : « حبيبى تحول وعبر » ...

تأكد أنك إن كنت تريد الخلاص من الخطية ، فإن الله يريد ذلك أضعافاً مضاعفة ... المهم إنك تبدى رغبتك المقدسة هذه . هناك عبارة لطيفة قالها أحد القديسين . قال : [إن الفضيلة تريدنا أن نريدها لا غير] . يكفى أن نريد ، إرادة جادة ، والله يتولى الباقى . بل حتى هذه الإرادة هو يمنحها لنا ، لأجل خلاصنا .

ومن القصص العجيبة عن سعى الله لخلاصنا ، ما يقوله الله - فى سفر حزقيال النبى - للنفس الخاطئة الملوثة : « مررت بك ورأيتك مدوسة بدمك ... وقد كنت عريانة وعارية . فمررت بك ورأيتك وإذا زمنك زمن الحب . فبسطت ذيلى عليك ... ودخلت معك فى عهد - يقول السيد الرب - فحممتك بالماء ، وغسلت عنك دماءك ، ومسحتك بالزيت ... وجملت جداً جداً ، فصلحت لمملكة » (حز ١٦) .

تلك النفس المسكينة - لو تركت لذاتها - لبقيت على حالها مطروحة وملوثة ، عريانة وعارية . ولكن الله فعل من أجلها الكثير ، وأنقذها مما هى فيه ...

ولكن ليس معنى سعى الله لخلاصنا ، أننا نتكل على ذلك ونكسل ! كلا وإلاً فإنه يتحول ويعبر كما حدث مع عروس النشيد . إنما يجب أن تتحد إرادتنا بإرادته . وعملنا بعمله . هو ينزل إلى عالمنا ، ونحن نقدم له ولو مزوداً ليستريح فيه ...

إن الله يسعى لخلاصنا ، ويسعى ليصالحنا معه . الصلح يبدأ من جانب الله ... إنه درس لنا حينما تكبر قلوبنا على إخوتنا الصغار ، فلا نسعى لمصالحتهم بحجة أننا الكبار !! ...

[illegible] يسعى لمصالحة [illegible]

فى كل تباشير الصلح التى ذكرناها نرى أن الله هو الساعى لمصالحة البشرية . النور الذى لا يدنى منه ، يسعى لمصالحة التراب والرماد ! ملك الملوك ورب الأرباب يتقدم ليصالح عبيده ... نراه أنه هو الذى أرسل الملائكة للبشر وهو الذى بعث إليهم برسائل فى الأحلام . وهو الذى أرجع لهم روح النبوة ، وهو الذى عمل على إعادة العلاقات كما كانت ... بل هو الذى أرسل إليهم إبنه الوحيد ليخلصهم ، من فرط محبته لهم .

وكما قال القديس يعقوب السروجي : [إنه كانت هناك خصومة بين الله والإنسان . فلما لم يتقدم الإنسان لمصالحة الله نزل الله ليصالح الإنسان] .

ولم يحدث هذا فى الميلاد فقط ، وإنما كان هو دأب الله دائماً . نراه وهو الكبير العالى غير المحدود يسعى لمصالحة الإنسان . يقول : « أنا واقف على الباب وأقرع . من يفتح لى أدخل وأتعشى معه » (رؤ ٣ : ٢٩) . ونحن نتساءل فى عجب : كيف يارب تقف على الباب وتقرع . البشر هم الذين يذهبون إلى بابك ، و يقبلون أعتابك . و يطلبون رضاك ... يقول الله : بل أنا الذى أذهب إليهم . أنا لست أبحث عن كرامة لى ، وإنما أبحث عن خلاصهم هم ، ولا أستريح حتى أطمئن على خلاصهم .

حقاً ، ما أعجب قلب الله المحب ، وما أعجب تواضعه ...

الله يرسل الأنبياء والرسل لكى يصالحوه مع البشر . يعترف القديس بولس الرسول بهذا فيقول : « نسعى كسفراء عن المسيح ، كأن الله يعظ بنا ، نطلب عن المسيح : تصالحوا مع الله » (٢ كو ٥ : ٢٠) .

حقاً : هل كان هناك عمل آخر للأنبياء سوى عقد صلح بين الله والناس . والله هو الذى طلب الصلح فأرسل أنبياءه ! بل ما أعجب الرب فى سعيه للصلح إذ يقول : « **بسطت يدى طول النهار، إلى شعب معاند ومقاوم** » (رو ١٠ : ٢١) . مازال الرب باسطاً يده ، يطلب صلحاً معنا و يقول : « هلم نتحاجج » (إش ١ : ١٨) .

الله هو الذى صالح يونان النبى لما إغتم وإغتاظ ، مع أنه غضبه لم يكن حسب مشيئة الرب . أعد له يقطينة : « فارتفعت فوق يونان لتكون ظلاً على راسه ، لكى يخلصه من غمه » وظل يجاذبه الحديث قائلاً له : « هل إغتظت بالصواب ؟ » و يونان يجيب : « إغتظت بالصواب حتى الموت » لم يزل به حتى أقنعه وصالحه (يون ٤) .

والسامرة التى أغلقت أبوابها فى وجهه ، لأن وجهه كان متجهاً نحو أورشليم ، لم يتضايق من تصرفها هذا ، ولم ينزل ناراً من السماء ليحرقها كما إقترح التلميذان ، بل ذهب إليها ليصالحها ، وهى المخطئة . وبذل من حبه حتى أصلحها وصارت له (يو ٤) .

وفى قصة الإبن الضال ، نرى أن الإبن الكبير لما غضب ورفض أن يدخل ، ورفض أن يشترك فى الفرح برجوع أخيه ، مع أن غضبه لم يكن مقدساً ، ومع أن إرادته كانت ضد إرادة الآب ، إلاّ أن الآب ذهب إليه ليصالحه . وفى ذلك يقول الكتاب :

« فخرج أبوه يتوسل إليه » (لو ١٥ : ٢٨) . مع أن كلام هذا الإبن كان قاسياً فى حديثه مع أبيه ، وكانت إتهاماته كثيرة وظالمة ، إلاَّ أن الأب إحتمله ، وأطال أناته عليه حتى صالحه . ولم يقل له كيف وأنت صغير تكلمنى هكذا !

ولما أخطأ القديس بطرس وأنكر السيد المسيح ، لم ينتظر الرب حتى يأتى القديس بطرس تائباً ومعتذراً ، بل هو الذى بدأه بالكلام ، وسهل الأمر عليه ، وأرجع العلاقات كما كانت ، بنفس الدالة ...

إن الرب لا يرى فى سعيه للصلح إنقاصاً لقدره أو إضاعة لكرامته ، بل على العكس إنه يبرهن على محبته وعلى وتواضعه فيزداد حب الناس له .

وإن كان الله بميلاده قد جاء ليصالحنا ، فإذهب أنت يا أخى وصالح غيرك . لا تقل كيف أذهب أنا ؟ هم الذين يأتون . كلا ، فإن الذى يقوم بالصلح ، هو الذى ينال بركته ... ولا تقل كيف أصالح إبنى ، أو أخى الأصغر ، أو خادمى ، أو مرؤوسى ، وأنا الكبير ؟! إعرف أن الكبير هو الكبير فى قلبه وفى حبه ، فى فضائله وفى إحتماله . والله لا يقيس الناس بمقياس السن أو المركز ، بل بنقاوة القلب .

ومهما كنت كبيراً ، فلن تكون مطلقاً فى درجة الله الذى سعى لمصالحة عبيده ومخلوقاته ! وحاذر من أن تطلب إحتراماً يليق بك ، حتى لو كان يليق بك المجد والكرامة !! بل أطلب محبة الناس وبركتهم . وفى ذكرى الميلاد تذكر تواضع الرب الذى نزل من سمائه إلينا ، فكيف لا نتنازل بعضنا للبعض ...

وفى مصالحة الناس ، لا تفكر فى خطية غيرك - كبيراً كان أم صغيراً - وإنما فكر فى نقاوة قلبك ، وضع أمامك تواضع الرب فى مصالحته للبشر .



* لماذا حل السيد المسيح بيننا ؟
* الفداء هو السبب الأساسى للتجسد .
* اتى المسيح لينوب عن البشرية .
* درس عجيب فى التواضع .
* أسباب أخرى .

لماذا حل السيد المسيح بيننا ؟

ونحن نحتفل بميلاد السيد المسيح من العذراء ، لعلنا نتساءل فيما بيننا : ما هى الأسباب التى دعت رب المجد أن يتخذ جسداً ويحل بيننا ، و يصير فى الهيئة كإنسان ، و يولد من إمرأة كبنى البشر ؟

لا شك أن الفداء هو السبب الأساسى للتجسد . جاء الرب إلى العالم ليخلص الخطاة ، جاء ليفديهم ، جاء ليموت وليبذل نفسه عن كثيرين . هذا هو السبب الرئيسى الذى لو إكتفى السيد المسيح به ولم يعمل غيره ، لكان كافياً لتبرير تجسده .

جاء السيد المسيح ليوفى العدل الإلهى ، وليصالح السماء والأرض .

ويمكننا أن نقول أيضاً ـ إلى جوار عمل الفداء والمصالحة ـ إن السيد المسيح قد جاء لينوب عن البشرية . وكما ناب عنها فى الموت ، ينوب عنها أيضاً فى كل ما هو مطلوب منها أن تعمله . إن الإنسان قد قصر فى كل علاقاته مع الله ، فجاء « إبن الإنسان » لينوب عن الإنسان كله فى إرضاء الله .

وفى فترة تجسده أمكن للرب أن يقدم للبشرية الصورة المثالية لما ينبغى أن يكون عليه الإنسان كصورة الله ومثاله . قدم القدوة ، والمثال العملى . حتى أن القديس أثناسيوس الرسولى قال إنه لما فسدت هذه الصورة التى خلق الله بها الإنسان ، نزل الله ليقدم لهم الصورة الإلهية الأصلية ...

وأيضاً لما أخطأ الناس فى تفسير الشريعة الإلهية وقدموها للناس حسب مفهومهم الخاطىء ، ومزجوا بها تعاليمهم الخاصة وتقاليدهم ، **جاء الرب ليقدم للبشرية الشريعة الإلهية كما أرادها الرب ، نقية من الأخطاء البشرية فى الفهم والتفسير ...**

وسنحاول الآن أن نتناول هذه الأسباب جميعها ، نتحدث عنها بمزيد من التفصيل ، ونرى ما يمكن أن نستفيده من دروس روحية لحياتنا خلال هذا الشرح .

١- الفداء هو السبب الأساسي للتجسد :

لقد أخطأ الإنسان الأول ، وكانت خطيته ضد الله نفسه : فهو قد عصى الله وخالف وصيته . وهو أيضاً أراد أن يكبر وأن يصير مثل الله عارفاً الخير والشر (تك ٣ : ٥) . وفى غمرة هذا الإغراء نرى أن الإنسان لم يصدق الله الذى قال له عن شجرة معرفة الخير والشر : « يوم تأكل منها موتاً تموت » (تك ٢ : ١٧) . وعلى العكس من هذا صدق الحية التى قالت : « لن تموتا » . وبعد الأكل من الشجرة نرى أن الإنسان قد بدأ يفقد إيمانه فى وجود الله فى كل مكان وقدرته على رؤية كل مخفى ، وظن أنه إن إختبأ وسط الشجر يستطيع أن يهرب من رؤية الله له . وفى محاسبة الله للإنسان بعد الخطية ، نرى أن الإنسان يتكلم بأسلوب لا يليق ، إذ يحمل الله جزءاً من مسئولية خطيته فيقول له : « المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى » (تك ٣ : ١٢) .

إنها مجموعة أخطاء موجهة ضد الله : عصيان الله ، ومنافسة الله فى معرفته ، وعدم تصديق الله فى مواعيده ، وعدم الإيمان بقدرة الله ، وعدم التأدب فى الحديث مع الله .

أخطأ الإنسان ضد الله ، والله غير محدود ، لذلك صارت خطية غير محدودة . والخطية غير المحدودة ، عقوبتها غير محدودة . وإن قدمت عنها كفارة ، ينبغى أن تكون كفارة غير محدودة ، ولا يوجد غير محدود إلاّ الله . لذلك كان ينبغى أن يقوم الله نفسه بعمل الكفارة ...

هذا هو ملخص المشكلة كلها فى إيجاز...

لقد أخطأ الإنسان ، وأجرة الخطية هى الموت (رو ٦ : ٢٣) . وكان لابد أن يموت الإنسان ، وبخاصة لأن الله كان قد أنذره بهذا الموت من قبل أن يتعدى الوصية ، إذ قال له : « وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها . لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت » . وهكذا استحق حكم الموت ، وكان لابد أن يموت .

كان موت الإنسان هو الوفاء الوحيد لعدل الله . وإن لم يمت الإنسان ، لا يكون الله عادلاً ، ولا يكون الله صادقاً فى إنذاره السابق ...

هذه النظرة يشرحها القديس أثناسيوس الرسولى بإستفاضة فى كتابه « تجسد الكلمة » . وإذ يشرح لزوم موت الإنسان ، يشرح من الناحية المضادة المشاكل التى

تقف ضد موت الإنسان . فماذا كانت تلك المشاكل ؟

كان موت الإنسان ضد رحمة الله ، وبخاصة لأن الإنسان قد سقط ضحية الشيطان الذى كان أكثر منه حيلة ومكراً !! (تك ٣) . •

وكان موت الإنسان ضد كرامة الله ، إذ إنه خُلق على صورة الله ومثاله ، فكيف تتمزق صورة الله هكذا ؟!

وكان موت الإنسان ضد قوة الله ، كأن الله قد خلق خليقة ولم يستطع أن يحميها من شر الشيطان ! وهكذا يكون الشيطان قد إنتصر فى المعركة !!

وكان موت الإنسان ضد حكمة الله فى خلقه للبشر . وكما يقول القديس أثناسيوس الرسولى إنه كان خيراً للإنسان لو لم يخلق ، من أن يخلق ليلقى هذا المصير !!

وأخيراً كان موت الإنسان ضد ذكاء الله . إذ كيف توجد المشكلة ولا يستطيع عقل الله أن يوجد لها حلاً !!

إذن كان موت الإنسان ضد رحمة الله ، وضد كرامة الله ، وضد قوة الله ، وضد حكمته وذكائه . وكان لابد لحكمة الله أن تتدخل لحل هذا الإشكال ...

وهكذا تدخل أقنوم الإبن لحل الإشكال . والإبن كما يقول القديس بولس الرسول هو : « حكمة الله وقوة الله » (١ كو ١ : ٢٤) ، ويسميه سفر الأمثال : « الحكمة » (أم ٩ : ١) .

والآن نسأل : كيف أمكن لحكمة الله حل هذا الإشكال ؟

كان الحل هو الكفارة والفداء ، لابد أن يموت أحد عن الإنسان ، فيفديه ، لإنقاذه . ولم يكن يصلح لهذا الفداء أى كائن آخر ، غير الإنسان ذاته ، لا ملاك ، ولا حيوان ، ولا روح ، ولا أية خليقة أخرى ... فلماذا ؟

كان لا يمكن لمخلوق أن يموت عن الإنسان لسببين :

أولاً - لأن كل مخلوق محدود ، لا يمكن أن يقدم كفارة غير محدودة ، توفى العقوبة غير المحدودة ، للخطية غير المحدودة .

ثانياً - لأن الحكم صدر ضد الإنسان ، فيجب أن يموت الإنسان .

وكان الحل الوحيد هو التجسد : أن ينزل الله إلى عالمنا مولوداً من إمرأة ، فهو من حيث لاهوته غير محدود كإله ، يمكنه أن يقدم كفارة غير محدودة ، تكفى لمغفرة جميع

الخطايا لجميع الناس ، فى جميع الأجيال . وهو من حيث ناسوته ، يمكنه أن ينوب عن الإنسان المحكوم عليه فى دفع ثمن الخطية . من أجل هذا السبب كان السيد المسيح يتعمد أن يسمى نفسه : « إبن الإنسان » فى كثير من المجالات ...

هذا إذن هو السبب الأساسى لولادة السيد المسيح من العذراء . جاء ليحمل خطيتنا ، ويموت عنها ، لينقذنا من عقوبتها ...

إن عرفنا هذه الحقيقة ، فما هى الدروس الروحية التى يمكن أن نتعلمها منها فى حياتنا ؟ هذا ما نود الآن أن نتأمل فيه .

تأمل ...

تأمل أيها الأخ المبارك فى أن كل خطية ترتكبها هى موجهة ضد الله ذاته ، ولا تختلف فى دينونتها عن خطية آدم وحواء . هى مثل خطيئتها غير محدودة ، لأنها موجهة ضد الله غير المحدود . وهكذا فإن عقوبتها غير محدودة ، ولا تغفر إلاَّ بكفارة غير محدودة ...

كل خطية ترتكبها هى عصيان لله . هى نوع من التحدى لله وعدم المبالاة بوصاياه ، بل هى ثورة عليه وإنضمام لخصمه الشيطان ... وهكذا فكل خطية ترتكبها تحمل معنى عدم محبة لله ، لأنه يقول : من يحبنى يحفظ وصاياى (يو ١٤ : ١٥) .

لذلك عندما أخطأ داود وزنى وقتل ، لم يقل أخطأت ضد أوريا الحثى وزوجته ، بل قال لله : « **لك وحدك أخطأت ، والشر قدامك صنعت** » (مز ٥٠ : ٤) ... حقاً إن الخطية خاطئة جداً كما يقول الكتاب (رو ٧ : ١٣) .

وكل خطية ترتكبها يحملها المسيح ، لأنه هو : « حمل الله الذى يرفع خطية العالم كله » (يو ١ : ٢٩) « كلنا كغنم ضللنا ، ملنا كل واحد إلى طريقه . والرب قد وضع عليه إثم جميعنا » (إش ٥٣ : ٦) .

إنك يا أخى ربما تستسهل الخطية ، وتستسهل غفرانها ، وتظن أنه بمجرد الإعتراف بها تنتهى . ولا يتناول تفكيرك كيف تغفر هذه الخطية بالاعتراف . لذلك تجد الأمر سهلاً ولا تشعر بفداحة ما تفعله ... !!

خطيئتك أيها الأخ لا تغفر إلاَّ بدم المسيح ، لأنه : « بدون سفك دم لا تحدث مغفرة » (عب ٩ : ٢٢) . فما هو موقف الكاهن من الغفران إذن ؟ هل مجرد قراءة

التحليل أو عبارة : « الله يحاللك » هى كل شيء ؟! كلا بلا شك . فمجرد هذه الكلمة وحدها لا تكفى ...

عندما يعطيك الكاهن المغفرة ، إنما يقوم بعملية تحويل . يحول الخطية من حسابك إلى حساب السيد المسيح . **ينقل الخطية من على رأسك إلى رأس الحمل الذى يحمل خطايا العالم كله . وحينئذ يمحوها السيد المسيح بدمه .**

بل أتجرأ وأقول إن السيد المسيح نفسه عندما كان يقول لإنسان : « مغفورة لك خطاياك » لم تكن هذه العبارة وحدها تكفى بدون دم الرب . إنما قول السيد الرب لإنسان : « مغفورة لك خطاياك » معناها : « إننى قبلت أن أموت عن هذه الخطايا ، وقبلت أن أمحوها بدمى . لذلك أعتبرها مغفورة ، لأنها مغموسة فى دمى » . لأنه لو كانت مجرد عبارة المغفرة تكفى لماذا إذن كان التجسد ، ولماذا إذن كان الصلب والفداء ؟

بسبب خطيتك أيها الأخ ، أخلى الرب ذاته ، وأخذ شكل العبد ، وولد كإنسان ، واحتمل كل ضعف البشرية . من أجل خطيتك صار طفلاً ، ومن أجلها هرب من هيرودس إلى مصر ، ومن أجلها جُرب من الشيطان ، ومن أجلها إضطهده اليهود وأهين وشتم وبُصق عليه وضرب وصُلب ومات . إن عرفت كل هذا ، فكيف تحتمل مشاعرك أن تخطىء ؟!

يجب أن تعلم جيداً أن كل خطية لابد أن تقف أمام عدل الله ، لكى تعطى حساباً أمامه « ومخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى » (عب ١٠ : ٣١) .

لذلك فى يوم ميلاد المسيح ، تأمل فى محبته لك ، وفى سعيه لخلاصك ، وكيف أنه من أجلك جاء .

حقاً لقد جاء المسيح ليخلص العالم (يو ٣ : ١٧) . جاء ليطلب ويخلص ما قد هلك ... فهل كان هذا هو كل شيء ؟ كلا ، فإننا نلاحظ شيئاً آخر وهو أنه قد جاء لينوب عن البشرية .

٢- أتى المسيح لينوب عن البشرية

إنه ناب عنا فى دفع ثمن الخطية ، فى الموت ، فمات عنا . ولكن هذا لم يكن هو الشيء الوحيد الذى ناب عنا فيه . بل أنه ناب عنا فى كل عمل صالح ، فى تكميل

الناموس كله ... فاختتن وهو غير محتاج إلى الختان ، وصام وهو غير محتاج إلى الصوم ، وإعتمد وهو غير محتاج إلى العماد ، وهكذا دواليك .

ولعل نيابة الرب عن الإنسان هي التي جعلته يسمى نفسه فى أحيان كثيرة « **إبن الإنسان** » ، مشيراً إلى أنه جاء نائباً عن الإنسان أو نائباً عن البشرية فهو ليس إبن فلان من الناس ، وإنما هو إبن الإنسان عموماً . وقد ناب عن الإنسان فى موته وفى حياته وفى كل ما كان مطلوباً منه ...

● ولنبدأ أولاً بموضوع العماد ، كمثال ...

ذهب السيد المسيح إلى يوحنا ليعتمد منه . ولكنه بلا شك لم يكن محتاجاً مطلقاً إلى العماد . معمودية يوحنا كانت للتوبة ، والتوبة عمل يقوم به الخطاة وليس الأبرار . ويسوع المسيح القدوس البار ، الذى هو وحده بلا خطية ، **لم يكن محتاجاً إلى التوبة ، وبالتالى لم يكن محتاجاً إلى معمودية يوحنا .**

كان يوحنا صوتاً صارخاً فى البرية ينادى : « توبوا لأنه قد إقترب ملكوت السموات » (مت ٣ : ٢) . « إصنعوا ثماراً تليق بالتوبة » « كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى فى النار» . وهذا الصوت لم يكن بأى حال موجهاً إلى السيد المسيح ، الذى إعترف له يوحنا قائلاً : « أنا محتاج إلى أن أعتمد منك » (مت ٣ : ١٤) . ويوحنا كان يأتى إليه الناس ليعتمدوا « معترفين بخطاياهم » (مت ٣ : ٦) والسيد المسيح لم تكن له خطية يعترف بها ...

فمادام لم يكن محتاجاً إلى التوبة ، ولا إلى المعمودية ، فلماذا ذهب إلى يوحنا ؟ ولماذا إعتمد ؟

لقد فعل ذلك « ليكمل كل بر » ، لينوب عنا فى إطاعة الناموس . إن البشرية فشلت فى إرضاء الله الآب ، فجاء الإبن يرضيه . يريه : « إبن الإنسان » وقد وقف كاملاً أمامه ... فناب عنا فى تقديم هذه التوبة ... كما سينوب عنا فى آخر الزمان فى تقديم خضوع البشرية للآب . وهكذا يقول الرسول : « ومتى أخضع له الكل ، حينئذ الإبن أيضاً سيخضع للذى أخضع له الكل » (١ كو ١٥ : ٢٨) .

إن الخطية كانت لها نتيجتان : هلاك الإنسان ، وإغضاب قلب الله . وجاء السيد المسيح ليصلح الأمرين معاً : جاء ليخلص الإنسان الهالك ، إذ ناب عنا فى

الموت وفى دفع ثمن الخطية . وجاء ليصالح قلب الله الغاضب بأن يقدم له ناسوتاً كاملاً يرضيه ، وهكذا ناب عنا فى تكميل الناموس وفى كل عمل صالح . قام بالعملين معاً : أرضى قلب الله بحياته الطاهرة ، وأنقذ حياة الإنسان ، بموته الكفارى .

● وكما ناب السيد المسيح عن البشرية فى التوبة والعماد وتكميل الناموس ، **ناب عنها أيضاً فى الصوم** . لم يستطع الإنسان أن يكبح جماح جسده ، فأكل من طعام نهى الله عنه ، فسقط . وجاء السيد المسيح ليصلح هذا الخطأ ، فبدأ خدمته بالصوم حتى عن الطعام المحلل للجميع . نحن نصوم لنروض الجسد ونلجمه ونربيه . أما جسد السيد المسيح فلم يكن جامحاً حتى يكبح جماحة ، فلماذا إذن صام ؟ ونحن نصوم لكى **تصفو** الروح وتسمو. وروح السيد المسيح فى صفائها وسموها ليست فى حاجة إلى صوم يوصلها إلى العلو الذى توجد فيه بطبيعتها . إذن لماذا صام ؟

لقد صام عنا ، أربعين يوماً وأربعين ليلة . وفى ذلك الصوم قدم لله الآب - نيابة عنا - جسداً طاهراً لا يخضع لشهوة طعام ، إستطاع أن يبرهن عملياً على أنه : « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » (مت ٤ : ٤) .

لقد ناب السيد المسيح عنا فى تقديمه للآب صورة الإنسان الكامل المطيع لوصاياه ، وفى نفس الوقت قدم للبشرية الصورة الإلهية التى خلقوا على مثالها .

٣ - أتى ليقدم لنا الصورة الإلهية :

لقد خُلق الإنسان على صورة الله ومثاله (تك ١ : ٢٧) فى البر والقداسة والكمال ، ولكنه شوه تلك الصورة الإلهية بخطاياه . لسنا نقول هذا عن مجموعة خاطئة معينة من الناس ، وإنما عن الكل : « الجميع زاغوا وفسدوا معاً ، ليس من يعمل صلاحاً ، ليس ولا واحد » (مز ١٤ : ٣) . وهكذا فُقدت الصورة الإلهية من الكون ... لعل تلك الصورة هى التى كان يعنيها ديوجين الفيلسوف الذى رآه الناس ممسكاً مصباحاً فى النهار وهو يجول يبحث عن شىء : فسألوه : [عن أى شىء تبحث] ؟ فأجاب : [أبحث عن إنسان] !! إن الإنسان فى وضعه الأصلى - كصورة الله - لم يكن موجوداً .

فأتى السيد المسيح ليقدم للناس هذه الصورة الإلهية ، بمثال عملى أمامهم يرونه فيحاكونه ... وهكذا قال لهم فيما بعد : « لأنى أعطيتكم مثالاً ، حتى كما صنعت

أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً » (يو ١٣ : ١٥) . بهذه الصورة رآه القديس بطرس الرسول : « تاركاً لنا مثالاً ، لكى تتبعوا خطواته » (١ بط ٢ : ٢١) . وبنفس المعنى يقول معلمنا يوحنا الرسول : « من قال إنه ثابت فيه ، ينبغى أنه كما سلك ذاك يسلك هو أيضاً » (١ يو ٢ : ٦) ...

قدم لنا صورة للإنسان المنتصر على الشيطان ، ليعالج بها صورة آدم وحواء اللذين إنهزما أمام إغراء الحية وإيحائها . وهكذا بدأ خدمته بأن سمح للشيطان أن يجربه ، ليس مرة واحدة كما فعل مع أبوينا الأولين ، وإنما ثلاث مرات (مت ٤) أعقبتها فيما بعد تجارب لا تعد . وإذ كانت كلمة الله ووصيته على لسان الإنسان الأول ، ولكنها ليست ثابتة فى قلبه ، ولا منفذة عملياً فى حياته ، كانت وصية الله وكلمته قوية وفعالة فى فم السيد المسيح ، هزم بها الشيطان فلم يستطع أن يرد عليه .

وفى حياة السيد المسيح قدم لنا صورة الإنسان الكامل ، الذى إستطاع أن يتحدى جميع مقاوميه قائلاً : « من منكم يبكتنى على خطية » (يو ٨ : ٤٦) . ويقول عنه بولس الرسول إنه : « مجرب فى كل شىء مثلنا بلا خطية » (عب ٤ : ١٥) . وقال عنه أيضاً إنه : « قدوس بلا شر ولا دنس قد إنفصل عن الخطاة ، وصار أعلى من السموات » (عب ٧ : ٢٦) . لذلك عندما بشر الملاك العذراء بميلاده قال لها : « القدوس المولود منك ... » (لو ١ : ٣٥) .

هذا القدوس ، إذ لم تكن فى حياته خطية يموت بسببها ، مات عن خطايانا نحن وإستحق أن يكون فادى البشرية .

يمكننا أن نتأمل حياته المقدسة ، ونأخذ لأنفسنا درساً من كل عمل ومن كل قول . كانت حياته نوراً يرشدنا إلى ما ينبغى أن نعمله . لذلك يسميه **القديس يوحنا** : « النور الحقيقى الذى يضىء لكل إنسان » (يو ١ : ٩) .

وإذ كانت خطية الإنسان الأولى هى الكبرياء ، لذلك جاء السيد المسيح يلقننا درساً فى التواضع .

٤ - درس عجيب فى التواضع :

سقط أبوانا الأولان فى الكبرياء عندما قبلا إغراء الحية فى قولها : « تصيران مثل الله ... » (تك ٣ : ٥) ومن قبلهما سقط الشيطان فى هذه الخطية ذاتها إذ قال فى

قلبه : « أصعد إلى السموات ... أصير مثل العلى » (إش ١٤ : ١٣ ، ١٤) . فجاء السيد المسيح يرد على هذه السقطة .

الإنسان الترابى أراد أن يرتفع ويصير مثل الله ، فإذا بالله ينزل ليصير شبه الناس !! الإنسان أراد أن يكبر ذاته ، فعالجه الرب بأن أخلى ذاته . مقاييس العظمة كانت مرتبكة فى حياة الإنسان . فأصلحها له الرب . كان يرى العظمة فى الكبرياء ، فشرح له الرب عملياً كيف أن العظمة فى التواضع . ووضع ذلك المبدأ العجيب : « أكبركم يكون خادماً لكم . فمن يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرتفع » (مت ١٢٣ : ١١ ، ١٢) .

كان الناس يقيسون عظمة الشخص بمقدار إنتفاخه وتوقير الناس له . لذلك كان الكتبة والفريسيون : « يحبون المتكأ الأول فى الولائم ، والمجالس الأولى فى المجامع ، والتحيات فى الأسواق ، وأن يدعوهم الناس سيدى سيدى » (مت ٢٣ : ٦ ، ٧) . فجاء السيد المسيح يعطى مثالاً آخر للعظمة ، العظمة الهادئة المتضعة غير المنتفخة البعيدة عن الكبرياء ومديح الناس ، عظمة القلب النقى المنتصر على المجد الباطل ، عظمة البساطة والوداعة . ولأول مرة بدأنا نسمع عن جمال الإتضاع ...

قبل السيد المسيح كانوا يرون العظمة ، كعظمة الملوك ، فى فخامتهم وحسن منظرهم ، مثل شاول الملك الذى : « من كتفه إلى فوق ، كان أطول من كل الشعب » (١صم ٩ : ٢) . كانوا يرون العظمة فى المركبات والسيوف واحاطة الشخص نفسه بالجنود ورجال الحاشية والعبيد والخصيان ... **!! فأتاهم السيد المسيح بصورة أخرى للعظمة ، عظمة مالك السموات والأرض الذى ليس له أين يسند رأسه ،** عظمة الشخص الذى ليس له مكان إقامة ، وليس له منصب ولا وظيفة فى المجتمع ، ومع ذلك يهز المجتمع كله بأصابعه !! ... لقد جاء السيد المسيح بصورة أخرى للعظمة لم يرها الناس من قبل ...

كانوا يفهمون الكرامة بأن يجلس العظيم فلا يستطيع أحد أن يقترب إليه ، أو أن يمشى فى هيبة ووقار لا تقرب منه إمرأة ولا طفل ... **لذلك عندما إقترب الأطفال من المسيح ، إنتهرهم التلاميذ !!** (لو ١٨ : ١٥) . فقال لهم الرب « دعوا الأولاد يأتون إلىَّ ولا تمنعوهم ، لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله » ... وتعجب التلاميذ ، وكانوا يفكرون فى قلوبهم : « ما هذا الذى نراه منك يارب ؟! إنك كبير عن هذا المستوى ، نجلسك

على عرش عظيم ، والناس يسجدون لك من بعيد !! لا يستطيع الكبار أن يقتربوا إليك ، فكم بالأولى الأطفال !! » ... وكأن السيد المسيح يجيبهم عن كل هذا : « دعكم من هذه الصورة الخاطئة التى أخذها الناس عن العظمة » ...

نفس الأمر تكرر فى بيت الفريسى عندما أتت إمرأة خاطئة وبللت قدمى المسيح بدموعها ومسحتها بشعر رأسها ، وكانت تقبل قدميه وتدهنها بالطيب (لو ٧ : ٣٨) فتأفف الفريسى ، وتذمر فى قلبه ... **كيف يقبل السيد المسيح أن تلمسه إمرأة خاطئة وتقبل قدميه ... !** ولكن السيد المسيح دافع عن المرأة ، ورآها أعظم من الفريسى ، لأنها أحبت كثيراً ، فغفر لها الكثير ... لم تكن العظمة فى نظر السيد المسيح هى الترفع عن الناس والتعالى على الضعفاء ، وإنما محبة الناس والعطف عليهم ...

نفس الإنتقاد وجهوه إلى الرب فى جلوسه مع الخطاة والعشارين ، كما لو كان فى جلوسه معهم أو إشتراكه فى موائدهم ، إنتقاص من قدره وكرامته . أما الرب فكان يرى الكرامة كل الكرامة فى البحث عن هؤلاء الضالين وإنقاذهم مما هم فيه . وهنا تبدو كرامته كراع ، ومعلم ...

كل هذا يقنعنا بأن السيد المسيح - فى مجيئه إلينا - كانت له إلى جوار الفداء أسباب أخرى ، وإن كانت جانبية ...

أسباب أخرى لمجيئه

لقد جاء السيد المسيح لكى يصلح التعليم الفاسد الذى وقع فيه الناس ، ولكى يصحح المفاهيم الخاطئة للشريعة وللناموس وللمبادىء العامة فى الحياة ...

ذلك لأن الكتبة والفريسيين وزعماء اليهود وكهنتهم ورؤساءهم كانوا قد شوهوا كل شىء ، وفسروا الدين حسب مزاجهم الخاص ، وأبطلوا وصية الله بسبب تقاليدهم (مت ١٥ : ٦) . ووضعوا على أكتاف الناس أحمالاً ثقيلة عسرة الحمل ، وأغلقوا ملكوت السموات قدام الناس ، فلا هم دخلوا ، ولا جعلوا الداخلين يدخلون (مت ٢٣) . من أجل ذلك وبخهم السيد المسيح ، وكشف رياءهم أمام الناس . وقال عن أمثال هؤلاء المعلمين الكذبة : « جميع الذين أتوا قبلى هم سراق ولصوص » (يو ١٠ : ٨) . ذلك لأنهم غرسوا فى أذهان الناس وقلوبهم تعاليم خاطئة ومفاهيم منحرفة .

لهذا جاء السيد المسيح ليقدم مفاهيم جديدة . جاء يقلب تلك الأوضاع ،

ويقيم ثورة فى الحياة الدينية . أو كما قال للناس جئت لألقى ناراً على الأرض . فماذا أريد لو أضطرمت » (لو ١٢ : ٤٩) . جاء يشعل ثورة ، ما قبلها ثورة ، ولا بعدها ثورة ... ثورة على الفهم الخاطىء للدين ، والفهم الخاطىء للمبادىء .

أقام السيد المسيح دولة جديدة من الفكر العالى السامى ، لا يمكن أن يصل إليه تفكير البوذيين ولا تفكير الكنفوشيوسيين ولا تفكير البراهمة ولا تفكير الفلاسفة جميعاً . جميع فلاسفة العالم إنحنوا فى خضوع وفى توقير أمام تعاليم المسيحية . وإذا بالمسيحية قد إرتفعت فوق كل تلك الفلسفات ، وغلبتها جميعاً . غلبت الفلسفة ، وغلبت القوانين ، وغلبت الأنظمة الموجودة ، وغلبت الفكر العالمى . كل ذلك عن طريق جماعة من الصيادين الجهلة الذين لا فكر لهم ، ولكن لهم فكر المسيح . وإستطاع هؤلاء أن ينشروا تعاليم الرب فى كل مكان : « مستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح » (٢ كو ١٠ : ٥) . حقاً لقد قدم السيد المسيح نوراً عجيباً للعالم .

نحن نفتخر ونفرح ونسر . يمتلىء فمنا بركة وتسبيحاً ، لأن السيد المسيح أعطانا تعليماً عظيماً من هذا النوع يسمو على كل تعليم آخر . صدقونى لو كانت المسيحية كلها ، ليست فيها سوى هذه الآية الواحدة التى تقول : « أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، إحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم و يطردونكم » (مت ٥ : ٤٤) . لو كانت المسيحية لا تحمل سوى هذه الآية الواحدة ، لكانت هذه الآية الواحدة تكفى ... هاتوا كل تعليم الفلاسفة لا تجدونه يوازى هذه الآية فى سموها وعلوها وعمقها ...

لقد جاء السيد المسيح إلى العالم فبهر العالم بتعليمه ... يقول معلمنا القديس متى بعد تسجيله لعظة السيد المسيح على الجبل : « فلما أكمل يسوع هذه الأقوال بُهتت الجموع من تعليمه ، لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة » (مت ٧ : ٢٨ ، ٢٩) . كان تعليماً لا يدخل إلى الآذان والأذهان فقط ، وإنما يخترق القلب و يستقر فيه ، بسلطان ... ذلك لأن : « كلمة الله حية وفعالة ، وأمضى من كل سيف ذى حدين ... ومميزه أفكار القلب ونياته » (عب ٤ : ١٢) . كان يعطى التعليم . و يعطى معه نعمة لتنفيذه . وربما عن هذا قال القديس يوحنا الرسول : « لأن الناموس بموسى أُعطى . أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا » (يو ١ : ١٧) .

لم يكن تعليم السيد المسيح مبهراً للشعب فقط ، وإنما للرؤساء أيضاً ، حتى فى طفولته ... إنه وهو صبى فى الثانية عشرة من عمره ، جلس فى الهيكل فى أورشليم ، فى وسط المعلمين ، فى وسط الكتبة والكهنة والشيوخ وأعضاء مجلس السنهدريم : « وكل الذين سمعوه ، بُهتوا من فهمه وأجوبته » (لو ٢ : ٤٧) . ولما بدأ كرازته ، نسمع عن نيقوديموس أحد رؤساء اليهود وعضو مجلس السنهدريم ، أنه جاء إلى السيد المسيح ليلاً ، يسأل و يتعلم (يو ٣ : ١ ، ٢) ...

وفى سلطان السيد المسيح فى التعليم ، وفى ثورته التعليمية ، نجده يقول فى سلطان : « سمعتم أنه قيل ... وأما أنا فأقول لكم ... » (مت ٥) . من ذا الذى يستطيع أن يتكلم هكذا عن شريعة الله ؟! ولكنه السيد المسيح ، الذى أنار عقولنا بذلك السمو العجيب فى فهم الدين ، وإستطاع أن يحول فكر البشرية وفهمها ...

الناس قبل مجيئه كانوا يفهمون أن القوة هى العنف ، فأعطاهم مثلاً للقوة هو قوة المحبة الباذلة ، التى تبذل ذاتها عن الآخرين ، ومثلاً آخر عن القوة ، هو قوة الروح فى الداخل .

والناس كانوا يفهمون الحرية بمعنى أن يفعل الإنسان ما يشاء . فوضح لهم أن الحرية الحقيقية هى تحرر الإنسان من الخطية وتحرره من عبودية الشهوة ومن سلطان الجسد ، بل تحرره من الذات ...

وفى تعليم السيد المسيح أعطى الناس فكرة جديدة عن الله ذاته . كانوا ينظرون إلى الله كقوة جبارة لا يستطيعون الدنو منها . حتى أنهم عند إعلان الوصايا العشر على الجبل ، كانوا مرتعدين ، « وقالوا لموسى : تكلم أنت معنا فنسمع ، ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت » (خر ٢٠ : ١٩) . أما فى مجىء السيد المسيح ، فأراهم الله فى صورة أخرى . وأخذوا فكرة عن الله المحب الشفوق ، الوديع المتواضع ، الذى : « لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد فى الشوارع صوته . قصبة مرضوضة لا يقصف ، وفتيلة مدخنة لا يطفىء » (مت ١٢ : ٢٠) . الله الذى يجول بينهم كراعٍ يسعى فى طلب الضال . وكطبيب يضمد الجروح ، وكنور حقيقى يشرق للضالين وغير العارفين ... هذه هى الصورة الجديدة التى قدمها لهم عن الله فأحبوه : « والمحبة تطرح الخوف إلى خارج » (١ يو ٤ : ١٨)

لأجل هذا كله فرح العالم بمجىء الرب..

وقف الملاك يحمل البشرى للرعاة قائلاً : « ها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب » (لو ٢ : ١١) ... أى أن الفرح لم يكن للرعاة فقط ، إنما لجميع الشعب . وليس لليهود فقط ، إنما للعالم كله ...

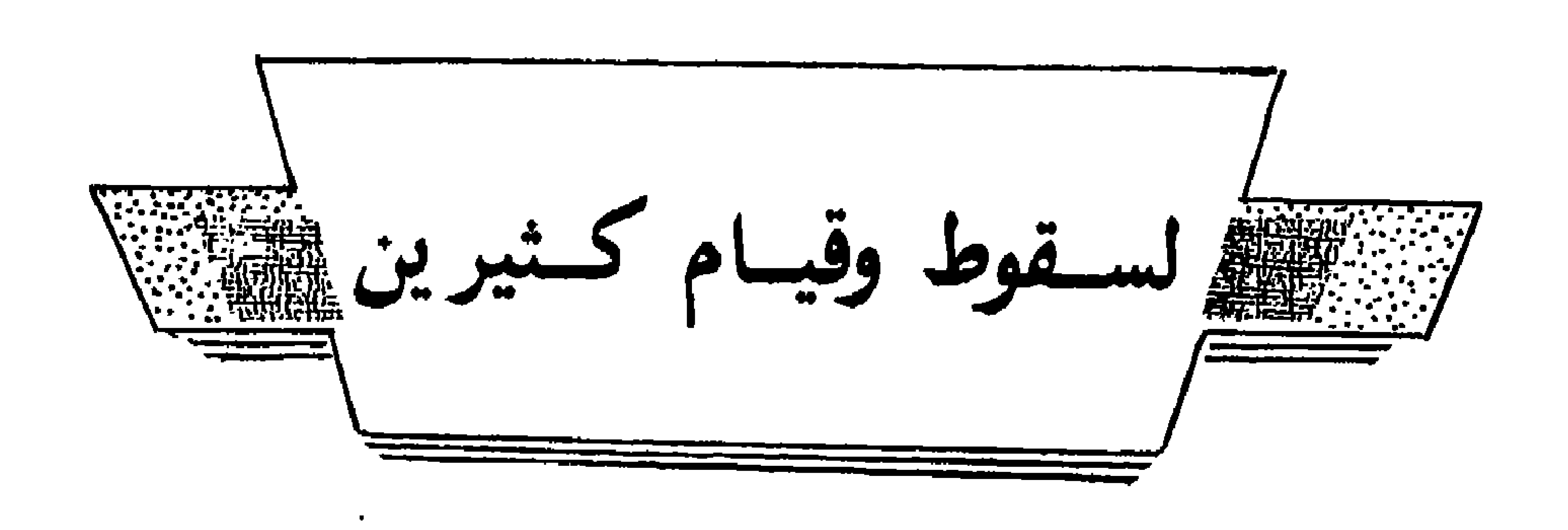
حقاً إنه فرح عظيم ، رأيناه وضحاً على وجه سمعان الشيخ الذى حمل الطفل يسوع على ذراعيه ، و بارك الله قائلاً : « الآن يارب تطلق عبدك بسلام ، لأن عينىَّ قد أبصرتا خلاصك الذى أعددته قدام جميع الشعوب » (لو ٢ : ٢٩) ... إنه فرح بالخلاص المنتظر منذ زمان .

رأينا هذا الفرح على وجه حنه النبية العابدة القديسة التى « وقفت تسبح الرب ، وتكلمت عنه مع جميع المنتظرين فداء فى أورشليم » (لو ٢ : ٢٨) .

وظهر هذا الفرح على وجه اليصابات لما زارتها العذراء ، فامتلأت اليصابات من الروح القدس وقالت للعذراء : « من أين لى هذا ، أن تأتى أم ربى إلىَّ . فهوذا حين صار صوت سلامك فى أذنى ، ارتكض الجنين بابتهاج فى بطنى » (لو ١ : ٤١ - ٤٤) ... حتى الجنين ابتهج ، لأنه كان نبياً ، و يعرف من هو هذا المسيح الذى أتى ...

ولكن هل فرح الكل وابتهجوا ، أم أن هناك من قد حزن - للأسف - بسبب مجىء المسيح ؟!

هذا ما سوف نحدثك عنه إن شاء الله فى المحاضرة المقبلة .



« هذا قد وضع لسقوط وقيام
كثيرين فى بنى إسرائيل ، ولعلامة
تُقاوم » (لو ٢ : ٣٤)

مقال مختصر عن محاضرة القيت فى الكاتدرائية الكبرى مساء الجمعة ١٩ / ١٢ / ١٩٨٠

كانت نبوءة من سمعان الشيخ عن السيد المسيح إنه : « لسقوط وقيام كثيرين ... ولعلامة تقاوم » (لو ٢ : ٣٤) ... فتى تحققت هذه النبوءة ؟ وهل كانت عن مناسبة الميلاد فقط ، أم امتدت إلى نهاية هذا الدهر ؟

كون مجيء المسيح لقيام كثيرين ، هذا أمر معقول يقبله الكل .

ولكن عجيبة حقاً هي عبارة « لسقوط ... كثيرين » فكيف ذلك ؟

سنشرح كيف تمت هذه العبارة ، ولنضرب المثل الأول :

إن كان المجوس قد فرحوا فرحاً عظيماً لما رأوا النجم الذى أرشدهم إلى مكان الرب (مت ١ : ١٠) ، فذهبوا وقدموا له هداياهم ... فإنه فى نفس الوقت قيل عن هيرودس الملك إنه لما سمع عن ميلاد المسيح « اضطرب وجميع أورشليم معه » (مت ٢ : ٣) .

كان ميلاد المسيح سبب فرح للمجوس ، وسبب اضطراب هيرودس

لما سمع من المجوس عبارة : « أين هو المولود ملك اليهود ؟ » اضطرب ! أهو ملك حقاً ؟ وهل يوجد ملك غيرى ؟! وكيف أتركه يملك ؟! إن هذا مستحيل . لذلك اضطرب وفكر أن يقتل المسيح !

مسكين أنت ياهيرودس ! هل ظننت فى جهلك أن السيد المسيح قد جاء لينافسك فى ملكك ! حقاً إنه ملك الملوك ، ولكن مملكته ليست من هذا العالم (يو ١٨ : ٣٦) . هل أنت خائف منه لئلا يهز عرشك و يسلبك تاجك ؟ اطمئن . إن لعبة التيجان تليق بالصغار أمثالك يتلهون بها . أما السيد المسيح فهو اسمى من التيجان واسمى من العروش . السماء هي عرشه . والأرض - بما فيها عرشك - هي موطىء قدميه (مت ٥ : ٣٤) .

لقد جاء السيد المسيح من أجلك أيضاً ، ليحررك : يحررك من عبودية الذات ، ومن عبودية الشهوات ، ويحررك من إغراء التيجان والعروش . يجعل نفسك طليقة تعلو فى السماء كالنسور . تعلو فوق مستوى التيجان والعروش والنياشين .

لو كان هيرودس يفكر فى خلاص نفسه ، لفرح بمجيء المسيح

وكان يمكنه أن يفرح أيضاً ، لو كان يهمه خلاص العالم ، أو على الأقل كان يفرح

لأن النبوءات تحققت فى عهده . ولكنه كان أحد الذين سقطوا لأنه تمركز حول ذاته . لذلك فكر أن يقتل المسيح !

أراد أن يقتل من بيده مفاتيح الحياة والموت ، الذى حياة هيرودس معلقة بمشيئته . وإرادة هيرودس لم تكن عن جهل ، بل عن معرفة ، بعد أن سأل الكهنة والكتبة وسمع النبوءة . وفى غضبه تحدى الله .

فهل أنت يأخى كهيرودس ، تخاف أن يكون المسيح ملكاً ؟

فترفض أن يملك عليك ، لئلا يحطم اصناماً داخل ذاتك . وترى أن مُلك المسيح هو صليب سوف تحمله ، يقف ضد رغباتك الخاطئة .

هل تخاف أن تضيع حريتك بدخول المسيح فى حياتك . وتقول خير لى أن المسيح لا يوجد ، لكى أوجد أنا [حسب منطق الوجوديين] ؟!

كان المسيح لقيام كثيرين كيوحنا المعمدان الذى قال : « ينبغى أن ذاك يزيد وأنى أنا أنقص » (يو ٣ : ٣٠) . وكان لسقوط كثيرين مثل هيرودس التى انطبقت عليه عبارة : « من وجد نفسه يضيعها » (مت ١٠ : ٣٩) .

كثيرون لا يفرحون بمجىء المسيح لأنهم غير مستعدين للقائه

لو عرفوا أن المسيح قد جاء يخافون أن يكشفهم ، أو يضبطهم فى خطية ، أو يحرمهم من مشغوليات تبهجهم ، وهم غير متفرغين له !

كذلك فى المجىء الثانى سيكون المسيح لسقوط وقيام كثيرين !

سيفرح المؤمنون الحقيقيون بمجىء الرب ، إذ يأخذهم معه على السحاب فى المجد ، و يكونون مع الرب كل حين . بينما آخرون « سيقولون للجبال غطينا ، وللتلال اسقطى علينا » (رؤ ٦ : ١٦) لأنه « مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحىّ » (عب ١٠ : ٣١) . إنها ساعة يتقرر فيها المصير ، مثل عبور البحر الأحمر ، كان سبب خلاص أولاد الله ، وسبب هلاك فرعون وجنوده .

من الذين سقطوا بمجىء المسيح ؟ لا شك أولهم الشيطان

قال الرب عنه : « أبصرت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء » (لو ١٠ :

١٨) . نعم ، إن كل ما فعله الشيطان ـ وما سيفعله ـ ضيعه الرب كله حينما قال على الصليب قد أكمل ... فصار تعب الشيطان باطلاً بالنسبة إلى المفديين . وختم الرب على هذا السقوط بقوله : « رئيس هذا العالم قد دِينَ » (يو ١٦ : ١١) .

وعبارة سقوط كثيرين لا تعنى الشيطان فقط بل كل جنده أيضاً ، إذ قد طُرح الذى كان يضل العالم « وطرحت معه ملائكته » (رؤ ١٢ : ٧ - ٩) .

من الأعداء الكثيرين الذين يسقطون : الإنسان العتيق

إن الرب بتجسده وفدائه ، منح نعمة للمؤمنين ينالونها فى المعمودية ، إذ يسقط الإنسان العتيق ، يموت ويدفن (رو ٦) . ويقوم إنسان آخر فى « جدة الحياة » قد لبس المسيح (غل ٣ : ٢٧) . حقاً فى المعمودية سقوط وقيام كثيرين .

ومن الأمثلة الجميلة للسقوط والقيام ، شاول وبولس :

سقط شاول الطرسوسى الذى كان يضطهد الكنيسة ، ويجر رجالاً ونساء إلى السجن ، وقام مكانه بولس الرسول الذى تعب فى الكرازة أكثر من الجميع وصنع معجزات ، وأسس الكنائس ، وأرسل الرسائل ، ونال إكليل الشهادة .

وسقط كهنة اليهود ، ليقوم كهنة على طقس ملكى صادق

قال السيد المسيح فى تغيير هؤلاء الوكلاء : « إن ملكوت الله ينزع منكم ، ويُعطى لأمة تصنع ثماره » (مت ٢١ : ٤٣) . وبالمثل فعل مع الناموسيين والصدوقيين ، وشهد العالم سقوط وقيام كثيرين . وقام كهنوت على طقس ملكى صادق .

سقط المعلمون الكذبة وفى مقدمتهم الكتبة والفريسيون والشيوخ

سقطت هيبتهم فى أعين الناس ، وسقط تعليمهم ، وسقطت كبرياؤهم . وافحمهم السيد المسيح فى كل مناقشة ، وأثبت للكل فساد ما يعلمون به . ورأى الناس أنه قد قام معلم عظيم « بهتوا من تعليمه » يعلمهم بسلطان وليس كالكتبة .وأخيراً تحطم الكتبة والفريسيون بقول السيد لهم فى (مت ٢٣) : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون » ... حيث شرح فى تفصيل شديد كل أخطائهم وانتهوا من تاريخ اليهود ، ليقوم مكانهم معلمون آخرون اختارهم الرب .

وفى سقوط كثيرين نذكر أيضاً الوثنية بكل رجالها

كل فلسفاتها وفلاسفتها قد سقطوا ، سواء مدرسة الإسكندرية الوثنية التى سقطت بقيام مدرسة الإسكندرية اللاهوتية التى أقامها مار مرقس . أو مثلما حدث فى قصة أسطفانوس الشماس الأول الذى قيل عنه إنه وقفت ضده مجامع الليبرتينيين ، والقيروانيين ، والإسكندريين ، مع الذين من كيليكيا وآسيا « ولم يقدروا أن يقاوموا الحكمة والروح الذى كان يتكلم به » (أع ٦ : ٩ ، ١٠) .

وقامت المسيحية منتصرة فى صراعها مع الأديان الأخرى

قال السيد المسيح : « ما جئت لألقى سلاماً على الأرض بل سيفاً » أى الصراع الذى يقوم بين الإيمان وكل معارضيه . أما الذى سقط فى هذا الصراع فهو الأديان الأخرى كلها : الأديان الرومانية بزعامة چوبتر ، والأديان اليونانية بزعامة زيوس ، والأديان المصرية بزعامة رع ، وأديان أخرى كثيرة فى الشرق ، مع عبادات الأرواح والنار والأجداد ... وسقطت الوثنية وكل فلسفتها وكل حكمتها .

وشهد العالم فترة من الكرازة ومن الاستشهاد ، ظهر فيها سقوط وقيام كثيرين ...

وتحقق قول الرسول : « اختار الله جهال العالم ليخزى الحكماء . واختار الله ضعفاء العالم ليخزى الأقوياء . واختار الله أدنياء العالم والمزدرى وغير الموجود ليبطل الموجود » (١ كو ١ : ٢٧ ، ٢٨) .

وإذا بالصياد الأمى يقف أمام اساطين مجمع السنهدريم ، ليقول لهم فى شجاعة « ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس » . ويقف السيد المسيح ليقول : « أحمدك أيها الآب لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء ، وأعلنتها للأطفال » (مت ١١ : ٢٥) وشهد التاريخ فى إنتشار المسيحية سقوط وقيام كثيرين .

لذلك كان المتواضعون فى مقدمة الذين قاموا

لقد تحققت تسبحة العذراء التى قالت فيها : « انزل الأعزاء عن الكراسى ، ورفع المتواضعين » (لو ١ : ٥٢) . هنا انزال ورفع : سقوط وقيام ...

هذه العذراء المسكينة اليتيمة التى سلموها لنجار يرعاها ، أصبحت جميع الأجيال تطوبها . ومزود البقر صار مزاراً للعالم كله ، مكاناً مقدساً ، تنحنى أمامه رؤوس

الأباطرة والملوك تطلب بركة ترابه . والصيادون الفقراء صاروا قادة العالم وكهنته ورعاته ومعلميه .

« الأشياء العتيقة قد مضت . هوذا الكل قد صار جديداً » (٢ كو ٥ : ١٧) .

ومن الكثيرين الذين سقطوا ، مفاهيم كثيرة ...

مفاهيم الناس السابقة عن العظمة والقوة والحرية وما أشبه ، تغيرت إلى العكس . سقطت وأقام السيد مكانها مفاهيم جديدة . فلم يعد القوى هو الذى يضرب غيره على الخد والخد الآخر . إنما القوى هو الذى يحتمل ، كما قال الرسول : « يجب علينا نحن الأقوياء أن نحتمل ضعفات الضعفاء » (رو ١٥ : ١) .

والعظمة صارت فى الاتضاع وليس فى الكبرياء . ووضع الرب هذه المبادىء الجميلة « من رفع نفسه يتضع . ومن وضع نفسه يرتفع » « من وجد نفسه يضيعها . ومن أضاع نفسه من أجلى يجدها » .

إننا على أبواب عام جديد . ونريد أن تنطبق علينا عبارة « قيام كثيرين » .

فيقيمنا الرب بنعمته وبروحه القدوس ، وبعمله الدائم فينا . يقيمنا عن يمينه ويقول لنا : « تعالوا يا مباركى أبى ، رثوا المُلك المعد لكم منذ تأسيس العالم » (مت ٢٥ : ٣٤) .

إنه أقام كثيرين لا نستطيع أن نحصى عددهم ، ربوات ربوات وألوف ، اولئك الذين ينشدون للرب أغنية جديدة فى ملكوته . فلنكن من هؤلاء .

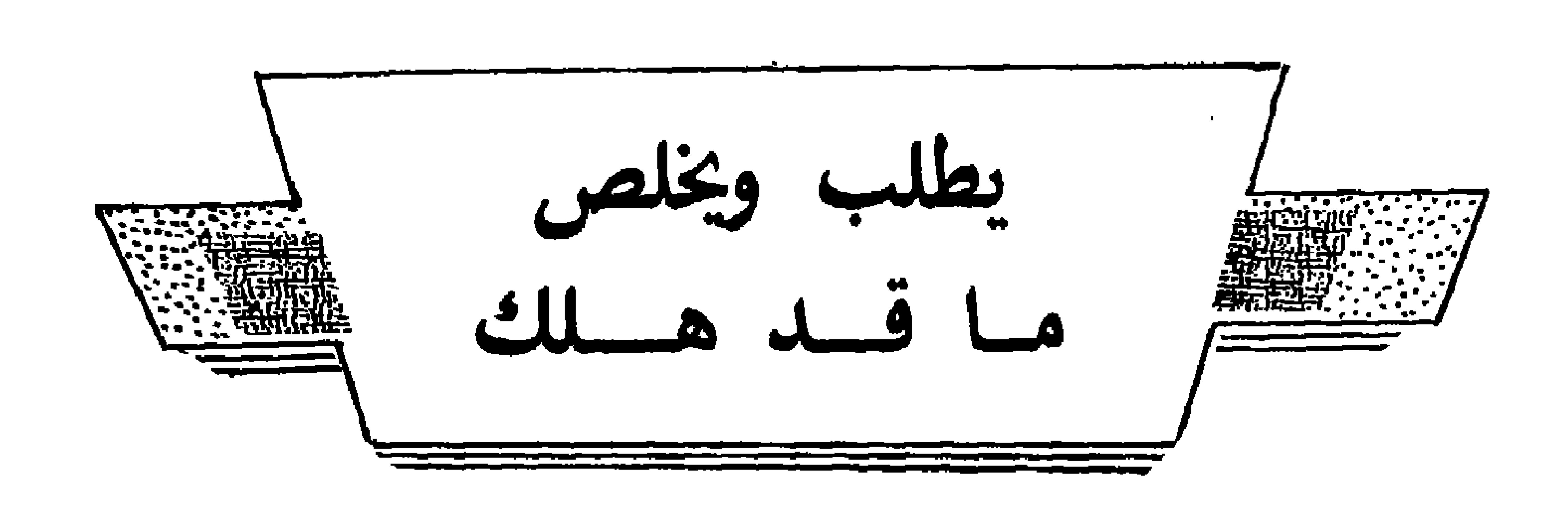
بقى أن نقول إن السقوط والقيام على الأرض هو بصفة مؤقتة يمكن أن تتغير بعد حين ، لتعد لسقوط أو قيام أبديين . وليت الجميع يهتمون بأبديتهم من الآن .

وليتنا نتناول باستحقاق فى بداية هذا العام ولنعرف :

ان التناول هو أيضاً لقيام وسقوط كثيرين

قيامهم فى حالة الاستحقاق ، إذ يثبتون فى الرب (يو ٦ : ٥٦)

السقوط فى حالة عدم الاستحقاق ، إذ يتناولون دينونة لأنفسهم (١ كو ١١ : ٢٩) .



« لأن إبن الإنسان قد جاء لكى
يطلب ويخلص ما قد هلك »

(لو١٩ : ١٠)

عن محاضرة ألقيت فى الكاتدرائية الكبرى مساء الجمعة ٣ / ١٢ / ١٩٧٦

لماذا جاء السيد المسيح إلى عالمنا ؟ يوضحه الإنجيلى بقوله إنه جاء يطلب ويخلص ما قد هلك (لو ١٩ : ١٠) أى الخطاة الهالكين .

ولماذا جاء يخلصهم ؟ السبب أنه أحبهم ... على الرغم من خطاياهم !

وفى هذا يقول الكتاب : « هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد ، لكى لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية » (يو ٣ : ١٦) . إذن هو حب أدّى إلى البذل ، بالفداء .

قصة ميلاد المسيح إذن ، هى فى جوهرها ، قصة حب

أحب الله العالم ، العالم الخاطىء ، المقهور من الشيطان ، المغلوب من الخطية ... العالم الضعيف العاجز عن انقاذ نفسه ! أحب هذا العالم الذى لا يفكر فى حب نفسه حباً حقيقياً ، ولا يسعى إلى خلاص نفسه ... بل العالم الذى فى خطيته انقلبت أمامه جميع المفاهيم والموازين ، فأصبح عالماً ضائعاً .

والعجيب أن الله لم يأتِ ليدين هذا العالم الخاطىء ، بل ليخلصه ، فقال : **« ما جئت لأدين العالم ، بل لأخلص العالم »** (يو ١٢ : ٤٧) .

لما يأتِ ليوقع علينا الدينونة ، بل ليحمل عنا الدينونة . من حبه لنا وجدنا واقعين تحت حكم الموت ، فجاء يموت عنا .

ومن أجل حبه لنا ، أخلى ذاته ، وأخذ شكل العبد ، وصار إنساناً .

كانت محبة الله لنا مملوءة اتضاعاً ، فى ميلاده ، وفى صلبه .

فى هذا الاتضاع قبل أن يولد فى مذود بقر ، وأن يهرب من هيرودس ، كما فى إتضاعه أطاع حتى الموت ، موت الصليب ، وقبل كل الآلام والإهانات لكى يخلص هذا الإنسان الذى هلك .

رأى الرب كم فعلت الخطية بالإنسان ! فتحنن عليه ...

كان الإنسان - الذى خُلق على صورة الله ومثاله - قد انحدر فى سقوطه إلى أسفل ،

وعرف من الخطايا ما لا يحصى عدده ، حتى وصل إلى عبادة الأصنام « وقال ليس إله » ... « الجميع زاغوا وفسدوا معاً » (مز ١٤ : ١ - ٣) ... ووصلت الخطية حتى إلى المواضع المقدسة !

الإنسان وقف من الله موقف عداء . ورد الله على العداء بالحب !

فجاء فى محبته « يطلب ويخلص ما قد هلك » . وطبعاً الهالك هو الإنسان الذى عصى الله وتحداه ، وكسر وصاياه ، وبعد عن محبته ، « وحفر لنفسه آباراً مشققة لا تضبط ماء » (أر ٢ : ١٣) . ولكن الله - كما اختبره داود النبى « لم يصنع معنا حسب خطايانا ، ولم يجازنا حسب آثامنا . وإنما ... كبُعد المشرق عن المغرب ، أبعد عنا معاصينا » (مز ١٠٣ : ١٠- ١٢) . ولماذا فعل هكذا ؟ يقول المرتل : « لأنه يعرف جبلتنا . يذكر أننا تراب نحن » (مز ١٠٣ : ١٤) .

حقاً إن الله نفذ (محبة الأعداء) على أعلى مستوى ...

جاء الرب فى ملء الزمان ، حينما اظلمت الدنيا كلها ، وصار الشيطان رئيساً لهذا العالم (يو ١٤ : ٣٠) ، وانتشرت الوثنية ، وكثرت الأديان ، وتعددت الآلهة ... ولم يعد للرب سوى بقية قليلة ، قال عنها إشعياء النبى : « لولا أن رب الجنود أبقى لنا بقية صغيرة ، لصرنا مثل سدوم وشابهنا عمورة » (إش ١ : ٩) .

وجاء الرب ليخلص هذا العالم الضائع : يخلصه من الموت ومن الخطية

وقف العالم أمام الله عاجزاً ، يقول له : « الشر الذى لست اريده ، إياه أفعل » « ليس ساكناً فىّ شىء صالح » « ان أفعل الحسنى لست أجد » (رو ٧ : ١٧ - ١٩) . أنا محكوم علىّ بالموت والهلاك . وليس غيرك مخلص (إش ٤٣ : ١١) . هذا ما تقوله أفضل العناصر فى العالم ، فكم وكم الأشرار الذين يشربون الخطية كالماء ، ولا يفكرون فى خلاصهم !!

إن كان الذى يريد الخير لا يستطيعه ، فكم بالأولى الذى لا يريده ؟! إنه حقاً قد هلك ...

لم يقل الكتاب عن المسيح إنه جاء يطلب من هو معرض للهلاك ، وإنما من قد

هلك ... لأن « اجرة الخطية هى موت » (رو ٦ : ٢٣) . الخطية فى اعنف صورها « قد دخلت إلى العالم ، و بالخطية الموت . وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع » ... وهكذا « ملك الموت من آدم » (رو ٥ : ١٢ - ١٤) .

والرب فى سمائه استمع إلى أنات القلوب وهى تقول :

قلبى قد تغير : الله لم أعد أطلبه . والخير لم أعد أر يده . والتوبة لا ابحث عنها ولا أفكر فيها ، ولا أر يدها . لماذا ؟ لأن « النور جاء العالم . ولكن العالم أحب الظلمة أكثر من النور ، لأن أعمالهم كانت شر يرة » (يو ٣ : ١٩) . ومادام قد أحب الظلمة أكثر من النور ، إذن فسوف لا يطلب النور ولا يسعى إليه !

هذا العالم الذى يحب الظلمة ، جاء الرب ليخلصه من ظلمته

« إلى خاصته جاء ، وخاصته لم تقبله » (يو ١ : ١١) . وعدم قبولهم له معناه أنهم هلكوا . والرب قد جاء يطلب ويخلص ما قد هلك . رفضهم له لا يعنى أنه هو يرفضهم . بل على العكس يسعى إليهم ، لكى يخلصهم من هذا الرفض . لأنه ير يد أن الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون » (١ تى ٢ : ٤) .

كذلك جاء يطلب الوثنيين الذين يعبدون آلهة أخرى غيره

هم لا يعرفونه . ولكنه يعرفهم و يعرف ضياعهم . وقد جاء لكى يطلبهم « النور أضاء فى الظلمة . والظلمة لم تدركه » (يو ١ : ٥) ولكنه لم يتركهم لعدم ادراكهم له . إنما جاء ليعطيهم علم معرفته . وقد قال للآب عن كل هؤلاء الذين جاء ليخلصهم : « عرّفتهم إسمك وسأعرفهم ، ليكون فيهم الحب الذى أحببتنى به ، وأكون أنا فيهم » (يو ١٧ : ٢٦) .

ما أكثر ما احتمل الرب لكى يخلص ما قد هلك .

لست أقصد فقط ما احتمله على الصليب . ولكنى أقصد أيضاً ما أحتمله أثناء كرازته من الذين رفضوه ، حتى من خاصته ! التى لم تقبله ... حقاً ما أعجب هذا : أن يأتى شخص ليخلصك ، فترفضه وترفض خلاصه . ومع ذلك يصر على أن يخلصك !

حتى الذين أغلقوا أبوابهم فى وجهه ، صبر عليهم حتى خلصهم

كان فى محبته وفى طول أناته ، لا ييأس من أحد ...

جاء يعطى الرجاء لكل أحد ، و يفتح باب الخلاص أمام الكل ... يعطى الرجاء حتى للأيدى المسترخية وللركب المخلعة (عب ١٢ : ١٢) .

« قصبة مرضوضة لا يقصف . وفتيلة مدخنة لا يطفىء (مت ١٢ : ٢٠)

إنه جاء ليخلص ، يخلص الكل . وكل هؤلاء مرضى وضعفاء وخطاة ، ومحتاجون إليه . وهو قد قال : « لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى ماجئت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة » (مر ٢ : ١٧) .

من أجل هذا ، لم يجد المسيح غضاضة أن يحضر ولائم الخطاة والعشارين ويجالسهم و يأكل معهم ويجتذبهم إليه بالحب . و يقول للمرأة التى ضبطت فى ذات الفعل : « وأنا أيضاً لا أدينك » (يو ٨ : ١١) لأنه ما جاء ليدينها بل ليخلصها .

وهكذا قيل عنه إنه « محب للعشارين والخطاة » (مت ١١ : ١٩)

بل إنه جعل أحد هؤلاء العشارين رسولاً من الاثنى عشر (متى) . واجتذب زكا رئيس العشارين للتوبة وزاره ليخلصه هو وأهل بيته ، وقال : « اليوم حدث خلاص لأهل هذا البيت إذ هو أيضاً إبن لإبراهيم » (لو ١٩ : ٩) . فتذمروا عليه قائلين : « انه دخل ليبيت عند رجل خاطىء » ولكنه كان يطلب ويخلص ما قد هلك .

إنه لم يحتقر الخطاة مطلقاً ، فالاحتقار لا يخلصهم !

إنما يخلصهم الحب والاهتمام ، والرعاية والافتقاد ، والعلاج المناسب .

العالم كله كان فى أيام المسيح « قصبة مرضوضة وفتيلة مدخنة . فهل لو العالم فسد وهلك ، يتخلى عنه الرب ؟! كلا ، بل يخلصه . هل لو فقد العالم صوابه ، يحتقره الرب ؟! كلا ، بل يعيده إلى صوابه .

حتى الذين قالوا اصلبه اصلبه ، قدّم لهم الخلاص أيضاً

وقال للآب وهو على الصليب : « يا أبتاه أغفر لهم ، لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون » (لو ٢٣ : ٣٤) . ولماذا قال : « اغفر لهم » ؟ لأنه جاء يطلب ويخلص ما قد هلك . ولهذا فتح باب الفردوس أمام اللص المصلوب معه ...

لم يكن ينظر إلى خطايا الناس ، إنما إلى محبته هو

لم ينظر إلى تعدياتنا ، إنما إلى مغفرته التى لا تحد . أما تعدياتنا فقد جاء لكى يمحوها بدمه . وحينما كان ينظر إليها ، كان يرى فيها ضعفنا . لذلك قال له المرتل : « إن كنت للآثام راصداً يارب ، يارب من يثبت ؟! لأن من عندك المغفرة » (مز ١٣٠) .

إنه درس لنا ، لكى لا نيأس ، بل نطلب ما قد هلك

هناك حالات معقدة فى الخدمة نقول عنها : « لا فائدة فيها » ، فنتركها ونهملها كأن لا حل لها ، بل نقول إنها من نوع الشجرة التى لا تصنع ثمراً ، فتقطع وتلقى فى النار (يو ٣ : ١٠) .

أما السيد المسيح فلم ييأس مطلقاً ، حتى من إقامة الميت الذى قال عنه احباؤه إنه قد أنتن لأنه له أربعة أيام (يو ١١) .

وهذا درس لنا أيضاً لكى نغفر لمن أساء إلينا

لأن الرب فى تخليصه ما قد هلك ، إنما يغفر لمن أساء إليه . فالذى هلك هو خاطىء أساء إلى الله . والرب جاء يطلب خلاصه ... ! كم ملايين وآلاف ملايين عاملهم الرب هكذا ، بكل صبر وكل طول أناة ، حتى تابوا وخلصوا . وبلطفه اقتادهم إلى التوبة (رو ٢ : ٤) .

كثيرون سعى الرب إليهم دون أن يفكروا فى خلاصهم

وضرب مثالاً لذلك : الخروف الضال ، والدرهم المفقود (لو ١٥) .

ومثال ذلك أيضاً الذين يقف الله على بابهم ويقرع ، لكى يفتحوا له (رؤ ٣ : ٢٠) . وكذلك الأمم الذين ما كانوا يسعون إلى الخلاص ، ولكن السيد المسيح جاء لكى يخلصهم ، ويفتح لهم أبواب الإيمان . ويقول لعبده بولس : « إذهب فإنى سأرسلك بعيداً إلى الأمم » (أع ٢٢ : ٢١) .

لما ذكر القديس بولس هذه العبارة التى قالها له الرب صرخ اليهود عليه قائلين إنه : « لا يجوز أن يعيش » (أع ٢٢ : ٢٢) . ولكن هداية الأمم كانت قصد المسيح الذى جاء يطلب ويخلص ما قد هلك .

جاء الرب يغير النفوس الخاطئة إلى أفضل

غير المؤمنين جاء يمنحهم الإيمان . والخاطئون جاء يمنحهم التوبة . والذين لا يريدون الخير جاء يمنحهم الارادة . والذين رفضوه جاء يصالحهم و يصلحهم .

وهكذا كان يجول يصنع خيراً (أع ١٠ : ٣٨) .

حتى المتسلط عليهم إبليس (أع ١٠ : ٣٨) جاء ليعتقهم و يشفيهم

لذلك نحن نناديه فى أوشية المرضى ونقول له : « رجاء من ليس له رجاء ، ومعين من ليس له معين . عزاء صغيرى النفوس ، وميناء الذين فى العاصف » . كل هؤلاء لهم رجاء فى المسيح الذى جاء يطلب ويخلص ما قد هلك ... إنه عزاء الهالكين وأملهم .

لذلك دُعى اسمه « يسوع » أى مخلص ، لأنه جاء يخلص

ولذلك فإن ملاك الرب المبشر ليوسف النجار ، قال له عن العذراء القديسة : « ستلد أبناً ، وتدعو اسمه يسوع ، لأنه يخلص شعبه من خطاياهم » (مت ١ : ٢١) .

مجرد اسمه يحمل معنى رسالته التى جاء من أجلها ، انه جاء يخلص ما قد هلك ...

جاء يبشر المساكين ، يعصب منكسرى القلوب . ينادى للمسبيين بالعتق ، وللمأسورين بالإطلاق » (إش ٦١ : ١) .

ما أحلاها بشرى جاء المسيح بها . لم يقدم للناس إلهاً جباراً يخافونه ... بل قدم لهم أباً حنوناً يفتح لهم أحضانه ، يلبسهم حلة جديدة . و يضع خاتماً فى أصابعهم ، و يذبح لهم العجل المسمن (لو ١٥) . إلهاً يخلصهم من خطاياهم ، ويمسح كل دمعة من عيونهم .

وهكذا ارتبط الخلاص باسم المسيح وبعمله وفدائه

فإن كنت محتاجاً للخلاص ، فاطلبه منه : يخلصك من عاداتك الخاطئة ، ومن طبعك الموروث ، ومن خطاياك المحبوبة ، ومن كل نقائصك . ينضح عليك بزوفاه فتخلص ، و يغسلك فتبيض أكثر من الثلج ...

هذه هى صورة المسيح المحببة إلى النفس ، الدافعة إلى الرجاء

فإن اردت أن تكون لك صورة المسيح ، افعل مثله

أطلب خلاص كل أحد . افتقد سلامة اخوتك

وأولاً عليك أن تحب الناس كما أحبهم المسيح ، وتبذل نفسك عنهم - فى حدود إمكانياتك - كما بذل المسيح . وتكون مستعداً أن تضحى بنفسك من أجلهم . بهذا تدخل فاعلية الميلاد فى حياتك

ثم أنظر ماذا كانت وسائل المسيح لأجل خلاص الناس .

استخدم طريقة التعليم ، فكان يعظ و يكرز ، و يشرح للناس الطريق السليم ، حتى يسلكون بالروح وليس بالحرف .

واستخدم أيضاً أسلوب القدوة الصالحة . وبهذا ترك لنا مثالاً ، حتى كما سلك ذاك ، ينبغى أن نسلك نحن أيضاً (١ يو ٢ : ٦) .

واستخدم المسيح الحب ، وطول الأناة ، والصبر على النفوس حتى تنضج . كما استخدم الاتضاع والهدوء والوداعة

وأخيراً بذل ذاته ، مات عن غيره ، حاملاً خطايا الكل ...

فافعل ما تستطيعه من كل هذا . واشترك مع المسيح ، على الأقل فى أن تطلب ما قد هلك ، وتقدمه للمسيح يخلصه .

وعلى الأقل قدم صلاة عن غيرك ليدخل الرب فى حياته ويخلصه . والصلاة بلا شك هى عمل فى امكانك

ولا تكن عنيفاً ولا قاسياً فى معاملة الخطاة ، بل تذكر قول الرسول : « أيها الاخوة إن انسبق إنسان ، فأُخذ فى زلة ، **فاصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة** (غل ٦ : ١) .

كم استخدم الرب روح الوداعة فى طلب الناس وتخليصهم ...



فى ظلال الكتاب




باسم الآب والإبن والروح القدس
الإله الواحد آمين

إن ميلاد السيد المسيح وإخلاءه لذاته ... أمر يثير فى القلب مشاعر وأفكاراً ، أعمق من أن يسطرها قلم بشرى ...

وإذ نحاول أن نصوغها فى الفاظ ، ليت هذه الالفاظ تستطيع أن تستوعب وأن تشرح .

وخلال ذلك نسأل أنفسنا :

ما فاعلية الميلاد فى حياتنا ؟

ما مدى إستفادتنا روحياً من إخلاء الرب لذاته ؟ ومن مجيئه فى ملء الزمان ؟ ومن تسميته عمانوئيل ؟ ومن دفعه ثمن خطايانا ونيابته عنا فى كل شيء ... ؟

إن الصفحات التى بين يديك ، تحاول أن تطرق كل هذا ...

شنوده الثالث

